قضايا نقدية

في الأدب الإسلامي

دكتور
محمد حامد شريف
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمياط

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م



مُقدِّمة

الحمد لله تتنسَّم أرَجَها النفوسُ الصافية وتترسَّم خطاها الأرواح السامية وأصلي وأسلم على منْبع البيان ، ومهْيع العرفان ، سيدنا محمد ﷺ مشذِّب شجرةَ الأدب ومهذِّب لغة العرب ، وعلى آله وأصحابه الذين ارتشَفوا من رُضَابه واشْتقُّوا من آدابه .. وبعد :

فهذه محاضرات في الأدب الإسلامي ، حرَصت فيها على أن أوضح معناه الشامل ، إذ أنه أدب كل العصور منذ عصر صدر الإسلام إلي أن تنتهي قصة الإنسان على الأرض ، هو أدب التراث والمعاصَرة في آن واحد ! والرغبة في التنقيب عنه ، هي علامة مضيئة على طريق طويل يصلنا بمنابع مقومات الشخصية الإسلامية ويرد إلينا ما ضاع من هذه المقومات التي قامت عليها حضارة الإسلام الراقية المؤثرة في كل الحضارات الإنسانية !

وقد تناولت في هذا الكتاب مفهوم الأدب الإسلامي ، وشبهة المصطلح منتهياً إلى تعريفه بما رأيته توفيقاً بين الآراء ، ثم قسمت الكتاب ثلاثة فصول : **الأول** : جعلته لبعض البحوث والمقالات . **والثاني** : عرضت فيه لبعض الإبداعات الشعرية . **والثالث** : لبعض الإبداعات القصصية . وهي على اختلاف عصورها تؤصل للروح الأدبية من منظور إسلامي يتفق مع الفطرة الإنسانية كما تؤكد أصالة القيم الإسلامية في أدبنا العربي ، كما تؤكد شمولية هذا النوع من الأدب لكل فنون القول !

وإن دراسة هذا النوع من الأدب لقوية الصلة بفهمَ اللغة العربية ومدلولاتها ، إذ أنها لغة القرآن والسنة ، وهما النبع الأصيل لهذا الأدب بعيداً ، عن تشويهات التاريخ ، وحملات الفلاسفة ، وتأويلات المتطرفين

وإبداعات غير المسلمين الذين يتجاهلون مبادئ ، وقيم وجمال هذا الدين الإسلامي . كما أن أهمية دراسة اللغة تنبع من كونها أداة تحمل طابع الأمة ، وتعبر عن شخصيتها ، وعاداتها ، وآمالها على هدي من إسلامها وعلى هذا فإن محاولة بعث الروح الإسلامية في الأدب المعاصر لتكوين تيار أدبي يعبر عن الحياة أصدق تعبير ، إن ذلك يتطلب العودة إلى التراث العربي القديم ، لا بروح التقليد وإنما بروح الوعي والإنصاف لدراسته على أسس تنسجم مع الحقائق التاريخية التي عايشت هذا الأدب والجدير بالذكر ، ألا ننسى هذه الحقيقة النقدية وهي : أن الأدب لا يقاس إلا بمقياس عصره الذي قيل فيه ، وبمدى تعبيره عن روح ذلك العصر الذي قيل فيه أو الحياة التي وجد فيها .

وبناءً على ذلك فغنيٌ عن البيان الإشارة إلى الخطأ الذي ينتج عن تطبيق مناهج للدراسة والتقويم بعيدة عن روح هذا العصر أو ذاك .

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت بهذا القدر ،

﴿ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾

المنصورة في : شوال} ١٤٢١هـ

: ديسمبر} ٢٠٠٠م

دكتـــــور

محمد حامد شريف

الأدب الإسلامي ، وإشكالية المصطلح :

في ندوة بكلية اللغة العربية بالمنصورة عام ١٩٩٣م وفي إحدى حلقات السيمينار ، دار نقاش بيننا حول هذه القضية والتي تدور حول هذا السؤال:هل كل أدب إنساني هو إسلامي ؟ وبعبارة أخرى ، هل كل ما يقال من أدب لا يتصادم مع المضمون الإسلامي أدب إسلامي بصرف النظر عن قائله حتى ولو كان صاحبه ملحداً أو وثنياً ؟ وهل كل ما يقال من أدب لا يتصادم مع مضمون إسلامي ليس من الأدب الإسلامي لأن صاحبه غير مسلم ؟ وكيف نرفض أدباً يقاتل من أجل الطبقة الكادحة أو يتغنى بالحب والجمال ؛ لأن قائله غير مسلم ؟ هذه فاتحة القضية التي تصارع فيها كثير من الأدباء واختلفوا فيما بينهم !!

والصراع هنا إنما يعني أن المفهوم الحقيقي ما يزال غائماً حتى في أذهان الذين يتصدَّون للدعوة إلي أدب إسلامي !

ففريق تدفعه الغيرة على الأدب العربي ، فيرى أنه بجملته أدب إسلامي ولا يرى مسوغاً لمصطلح آخر ، مستدلاً بعصر النبوة والخلافة الراشدة ، حيث كان الأدب في جملته إسلامياً ، وما جاء مخالفاً له فهو لا يعبر عن عقيدة أمة ، كما يرى هذا الفريق أن الأدب الإسلامي والأدب الإنساني وجهان لشيء واحد ، يقول الدكتور إبراهيم عوضين :

" فالأدب الإسلامي - أو قل إن شئت الأدب الإنساني - هو التعبير الفني عن الكون في علاقته بالإنسان ، وعلاقة الإنسان به من خلال التصور الإسلامي لتلك العلاقة ؛ وذلك لأن الإسلام هو دين الفطرة الإنسانية، وليس دين الأمة التي عرفت بذلك منذ بعثة محمد ﷺ فحسب ؛ لأنه لم يكن عبثاً ولا مجاملة قوله تعالى " إن الدين عند الله الإسلام " [(1)] ولا عبثاً ولا مجاملة قوله تعالى في وصف دين الأنبياء السابقين " ملة أبيكم

---

(1) سورة آل عمران آية / ١٩ .

إبراهيم ، هو سمَّاكم المسلمين من قبل" (١) ولا كان سهواً أو خطأ أن يحكي القرآن ما جاء على لسان سليمان عليه السلام في حديثه عن ملكة سبأ" وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين"(٢) وأن تقول ملكة سبأ لما عرفت الحقيقة :" رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين" (٣) تلك الآيات التي تقرر أن الإسلام دين الله الخالص الذي يهدي به الإنسان ـ كل الإنسان ـ إلي فطرته (٤)

أقول: إن هذه الآيات إنما تشير إلي إسلام الأنبياء جميعاً وهذا حق ، أما إسلام أقوامهم ففيه نظر حيث كان مجيء الرسول الخاتم ﷺ فيصلاً بين إسلامهم أو عدمه ، فيهود اليوم مثلاً ليسوا بمسلمين إلا إذا آمنوا برسالة محمد ﷺ كما آمنوا برسالة موسى من قبل ، وكإيماننا برسالة الأنبياء السابقين جميعا ، وما يقال لليهودية يقال لجميع الأديان بعد مجيء محمد ﷺ وأما كون الأدب إسلامياً ؛ لأنه أتي بما يساير الإنسانية والفطرة ، فالإنسانية في العالم وجهات نظر قد تتفق وقد تتصادم ، فاليهودي مثلاً إذا لطَّخ رغيفه بدم العربي كان في زعم اليهود إنساناً مستحقاً للجنة ! والحديث عن مفهوم الإنسانية بين شعوب العالم يطول . أما الفطرة : فإنما توافق الإسلام قبل أن يكتسب المرء تأثيراً خارجياً أما بعده فالأمر يختلف ! ولهذا أختلف مع الرأي السابق لأنه لا يخلو من التعميم والبعد عن الواقع الملموس .

يقول الدكتور عبد القدوس أبو صالح : " أما خشية هؤلاء المعارضين الغيورين على الأدب العربي من أن يكون " الأدب الإسلامي " قد طرح بديلاً عنه ، فهي خشية ليس لها ما يسوغها ؛ إذ ليس هناك أي تعارض بين الأدب الإسلامي والأدب العربي ، فالأدب العربي نسبة

---

(1) سورة الحج آية / ٧٨ .
(2) سورة النمل آية / ٤٢ .
(3) سورة النمل آية / ٤٣ .
(4) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر د/ إبراهيم عوضين ص/٩١ط/١/١٩٩٠ .

إلي اللغة التي يكتب بها هذا الأدب كما نقول الأدب الإنجليزي والأدب الفرنسي ، أما الأدب الإسلامي فهو منسوب إلي المضمون الذي ينطلق من منطلق عقدي هو التصور الإسلامي الصحيح ." [١]

وفريق آخر يرى إشكالية في المصطلح ، ويعرض بدائل أخرى منها : مصطلح " أدب الدعوة " ومصطلح " الاتجاه الإسلامي" ومصطلح " آداب الشعوب الإسلامية " ومصطلح " " الأدب المسلم " وغير ذلك !

فأما مصطلح " أدب الدعوة " [٢] فهو يُدرَّس بهذا الاسم في إحدى جامعات المملكة السعودية .. وإن هذا المصطلح يمثل قمة العطاء الفني حين يهدف إلي خدمة الدعوة في أي مجال من ميادينها الفسيحة ، ولكن " الأدب الإسلامي " لا ينبغي أن يحصر في أدب الدعوة فقط .. لأنه يشمل أي موضوع وأي تجربة إنسانية تتعلق بالكون الفسيح ..، وهو يشتمل على أدب الدعوة ، لكنه لا يحصر في ميادينها مهما كانت متعددة .

أما مصطلح " الاتجاه الإسلامي" فهو يُهوِّن من شأن الأدب الإسلامي ، ويجعله مجرد اتجاه ، يظهر حيناً ويختفي حيناً آخر وكأن الإسلام الذي أوجد الأمة الإسلامية وميَّزها بما فيه من خصائص التصور الإسلامي - لا يوجد في أدب هذه الأمة إلا بما لا يتجاوز إتجاهاً أدبياً ، ليكون أدباً إسلامياً له مفهومه المميز وسماته الخاصة به ، وهكذا نجد في مصطلح "الاتجاه الإسلامي " - حين يراد له أن يكون بديلاً عن مصطلح "الأدب الإسلامي " تهويناً من شأن هذا الأدب بل تهويناً من

---

(1) مجلة الأدب الإسلامي السنة الثانية المجلد الثاني عدد ٨ ربيع الثاني ١٤١٦هـ ص/٣

(2) المرجع السابق بتصرف .

أثر الإسلام في الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً في جانب مهم من جوانب حياتها العامة وهو جانب الحياة الأدبية

وإذا كنا نرفض أن يكون مصطلح " الاتجاه الإسلامي" بديلاً عن مصطلح " الأدب الإسلامي " فإننا لا نرفضه إذا بقي إلى جواره يصف واقع أديبٍ معين ، له اتجاهات متعددة يجيء " الاتجاه الإسلامي " واحداً منها فهذا أمر واقع لا ننكره وتوصيف لا نرفضه ما دام يصف حالة بعينها .

وأما مصطلح " آداب الشعوب الإسلامية " فهو - كما تدل صيغته - لا يمكن أن يكون عنواناً لمذهب أدبي معين ولم يزعم واحدٌ من النقاد أو الدارسين أن آداب الشعوب الإسلامية تدخل كلها في مفهوم الأدب الإسلامي ، ففي آداب هذه الشعوب مذاهب متباينة واتجاهات متضاربة يقع بعضها قريباً من مفهوم الأدب الإسلامي ، ويقع كثير منها في اتباع المذاهب الأدبية العالمية بما فيها من المذاهب المبنية على "معتقدات" أو أيديولوجيات" مخالفة للإسلام ، وهاهم أولاء الأدباء الإسلاميون في الهند وتركيا وفي أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي يشكون من طغيان تيار الحداثة الفكرية التي تعد فتنة تعرض لها المسلمون عن طريق جانب مهم من جوانب حياتهم وهو الجانب الأدبي الذي لا ينكر أحد أهميته وخطورته .

وأما مصطلح " الأدب المسلم " فيقول عنه الدكتور/ محمد العزب : " يلوح لي - وأرجو ألا أكون مخطئاً - أن الحل والإشكال كامنان في " المصطلح " وليس في مجرد القضية أي أن مصطلح " الأدب الإسلامي " هو المسئول عن هذا الخلط ؛ لأنه ليس (مانعا) وإن كان (جامعا) أي أنه لا يستطيع أن يمنع دخول غير الإسلامي - إذا لم يتصادم - فالمقولة التي تدافع عن كرامة الإنسان ..لا أستطيع إسلامياً منعها من دخول ساحة المفهوم الإسلامي " ثم يقترح أن يُغيَّر المصطلح إلى " الأدب المسلم " بدلاً من الأدب الإسلامي فيقول : فكل أدب صدر عن

مسلم فهو أدب مسلم وكل أدب صدر عن غير مسلم - حتى ولو لم يتناقض - فهو غير مسلم .. وبذلك يصبح (الأدب المسلم) هوية لها خصوصيتها ، وليس مجرد مقولة فاقدة للانتماء ، بمعنى أنه يصبح ربطاً جدلياً بين القائل والمقولة ..

تبقى منطقة مشتركة يقدم فيها الأدب المسلم إسهاماته ويقدم فيها الأدب غير المسلم إسهاماته .. وهي منطقة (الأدب الإنساني) فالمقولة بذاتها، يمكن أن تكون إسلامية ، ولكنها لا تكون مسلمة من حيث فقدانها للانتماء إلى أولية المنبع المسلم تماماً كالجنسية الأصيلة والجنسية الممنوحة . الأولى عناق بين المواطن والمواطنة ، والأخرى مواطنة فحسب مع أن هذه وتلك يجمعهما همُّ الوطن الواحد المشترك .

ولا يمكن أن أسحب المواطنة حتى من خائن للمواطنة ؛ لأني نظرياً لا أستطيع ، فهي حقه الخَلْقي ! إنني أسحب منه فقط التزامه بهذه المواطنة في هذه اللحظة .. (فالأدب المسلم) يعني في النهاية أنه الإبداع والمبدع ، والأدب غير المسلم يعني كذلك - من الوجهة العقدية بالذات - هذه الوضعية .. والأدب الإنساني منطقة مشتركة يسهم فيها كل الفرقاء.

وبناءً على هذا الرأي : يدخل مصطلح الأدب الإسلامي في المناطق المشتركة بلا قدرة على التمييز ربما لأن المقولة مشتركة ، ولا ينظر فيها إلى المنبع (القائل) ولكن الأدب المسلم - على الرغم من إسهامه في هذه المناطق المشتركة - يبقى متفرد الهوية ؛ لأنه منظور فيه إلى المقولة والقائل معاً.

وأقول للناقد الكريم : [1] لقد نجوت من واحدة فوقعت في أخرى ؛ لأن المصطلح الذي تقترحه وهو " الأدب المسلم " ليس مانعاً ولا جامعاً ، أما أنه ليس " مانعاً " فلأنه يدخل في "الأدب المسلم " الذي عرفته بأنه:

---

[1] المرجع السابق العدد ٤٤٤ ـ ١٨/ ٢/ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣/٨/٦ تعليق د. عبد القدوس أبو صالح على ندوة الأدب الإسلامي بالمنصورة .

كل أدب صدر عن مسلم ، أي نص كان ، مهما كان مضمونه موافقاً أو مخالفاً للتصور الإسلامي . وأنت تعرف أن كثيراً من الأدباء المسلمين أنتجوا على مر العصور- في الأدب القديم والحديث - نصوصاً فيها من الكفر والإلحاد والزندقة والمجون ما يصادم التصور الإسلامي ويخرج عن ثوابت الإسلام ، فكيف نعد هذه النصوص من الأدب المسلم وهي في مضمونها أبعد ما تكون عن الإسلام ، بل ربما دعت إلى نبذ الإسلام بكل ما فيه . ؟

وأما كون المصطلح ليس " جامعاً " فذلك لأنه يقع فيما أخذته على الأدب الإسلامي ، وإلا فكيف تفرق بين نصين متفقين في المضمون الإسلامي لمجرد أن القائل الأول مسلم والثاني غير مسلم ؟ ثم أين المعيارية في مصطلح " الأدب المسلم " وهي تكمن في دين الأديب ؟ ولا تنظر إلى مضمون أدبه ، وهذه معيارية غير دقيقة ...

ويجيب الدكتور محمد العزب عن هذا الإبداع الذي يصدُر عن فنان مسلم ، يجسد وضعية فنية (تتصادم) مع السَّواء الإسلامي فيقول : هو أدب (مسلم نقيض) وفي كل ظاهرة فكرية أو إبداعية يوجد الشيء ونقيضه ، فالأدب المسلم يحتضن (المع) و(الضد) بشرط ألا يتخلى عن الضد ، بل يمارس معه نوعاً من النقد الذاتي المتواصل يحدد فيه أنه نادٌ عن السواء المسلم ... [1]

وبعد : فمع كثرة التعريفات التي وقفت عليها ، ومع حرص أصحابها علي الدقة والوفاء بكمال المعنى ، أرى إضافة بعض كلمات لعلها تكون بمثابة التوفيق بين تلك الآراء **ليصبح تعريف الأدب الإسلامي هو:** التعبير الفني الهادف عن واقع الحياة والكون والإنسان تعبيراً ممتزجاً بوجدان الأديب قائماً على الالتزام بالقيم الإسلامية مبنياً

---

[1] راجع صحيفة المسلمون السنة التاسعة العدد ٤٣٧ الجمعة ٢٨ذي الحجة ١٤١٣هـ ـ ١٨ يونية ١٩٩٣م .

على الاختيار لا التبعية أو الإلزام . ومن هذا التعريف ندرك أهمية ما يلي :

أولا : أهمية الوجدان وارتباطه النزوعي بهذا الأدب الإسلامي حتى نخرج من دائرة التوظيف بمعناه الجاف .

ثانياً : أهمية الالتزام بإطار الأدب الإسلامي ؛ خوفا من التردّي في وهدتين :

إحداهما : التردّي في بؤرة الإلزام (الأدب الموجه) حينما تفرضه بعض الأيدلوجيات والمذاهب المعاصرة على تابعيها ممن وقعت أقلامهم وأفكارهم أسيرة مفاهيم محددة وأُطُر معينة لا يمكن الفكاك منها ..إلا إذا سقط المعتقد أو المذهب ، كما حدث مؤخراً للماركسية بكل أجنحتها الشيوعية والاشتراكية .

والأخرى : التردّي في مستنقع الإسفاف والرذيلة بحجة حرية الفنان وانطلاقه إلى ما يسمى بنظرية " الفن للفن " كما هو في الوجودية واللامعقول وما يسمى بالحداثة وغير ذلك .[١]

ثالثاً : أهمية أن يكون مفهوم الالتزام عند الأديب واضحاً وقائماً على اختيار واقتناع .

فهو " التزام يحقق به الأديب الإسلامي توازنه بين ما يفرضه عليه الإسلام ، وما تقوم عليه فطرته ، وما تتطلبه حياته العامة بما فيها من تقلبات [٢] . وهذا المعنى المميز يجعل الأديب المسلم يسبح في حرية بمعناها الواسع فهو حر في اختيار أدواته الفنية ، وهو حر في اختيار أنماطه الفكرية وأساليبه التعبيرية معتصماً بفطرته السوية من ناحية وبإسلامه أو معتقداته الروحية من ناحية .

---

(1) راجع مجلة جامعة الأزهر للدراسات الإسلامية والعربية بالمنصورة ــ ج/٢ ص/١٠٨٦

(2) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر ص/ ٥١ .

مجالات الأدب الإسلامي :

وعود على بدء وكلمة حق افتتح بها الدكتور رجب البيومي الندوة التي أشرنا إليها فتحدث فضيلته عن مجال الأدب الإسلامي الواسع الرحب فأشار إلى أن المقال الجيد الذي يصور فيه الأديب أحزانه لمآسي المسلمين .. أدب إسلامي والخاطرة الفنية التي تنطوي على فكرة إسلامية أدب إسلامي، والترجمة الرائعة لعلم من أعلام الإسلام في القديم أو الحديث أدب إسلامي فلا يتوقف مجال الأدب الإسلامي عند القصيدة أو القصة أو المسرحية بل يتعدى ذلك إلى فنون قولية أخرى، فقال : إن تراثنا العربي يزخر بكنوز هي في حقيقتها نماذج رفيعة للأدب الإسلامي ومن عجب أنه لم يتنبه لها إلا القليل ، وحتى الذين تنبهوا إليها قصَروها على بعض قصائد من الشعر، وقد غفلوا عن كتب مثل: صيد الخاطر" لابن الجوزي" وإحياء علوم الدين" للغزالي" وأدب الدنيا والدين " للماوردي" ونهج البلاغة المنسوب للإمام " علي" - رضي الله عنه - إلى غير ذلك من الكتب التي تمثل الأدب الإسلامي خير تمثيل خاصة إذا وضعنا في اعتبارنا أن الأدب - أي أدب - في حقيقته هو التعبير الجميل عن الشعور الجميل ، وبالطبع فإن كل شعور إسلامي جميل وبالتعبير عنه تعبيراً جميلاً يكون أدباً إسلامياً ! انظر مثلاً - والحديث للدكتور رجب - إلى كتاب: صيد الخاطر ، ترَ مؤلفه يستعرض فيه مشاعره وآلامه التي تتصارع في نفسه خشية من عذاب الله أو طمعاً في رحمته في أسلوب جميل رائع يرفع هذا الكتاب إلى درجة عالية تجعله من صميم الأدب الإسلامي .. فكل أدب ينزع نحو الإسلام مراعياً روحه العامة هو أدب إسلامي .[1]

❁❁❁❁❁❁❁❁

[1] صحيفة المسلمون عدد٤٣٧ يونية ١٩٩٣ ص ١٠

لغة الأدب الإسلامي :

ذهب بعض المتحمسين للغة العربية ـ وهم من الداعين إلى الأدب الإسلامي ـ إلى أن هذا الأدب ينبغي أن يقصر على الأدب المكتوب باللغة العربية ؛ لأنها لغة القرآن الكريم ، وعلى من يريد من المسلمين غير العرب أن يكون لهم أدب إسلامي أن يتعلموا العربية ، كما تعلمها أجدادهم من الأعاجم في العصور السابقة . ونقول هنا : [١] لاشك أن لغة القرآن الكريم هي اللغة الأولى للأدب الإسلامي ، إلا أنه لا يجوز أن يحصر في لغة واحدة مهما كانت دوافع الغيرة والحماسة لها ومن الواضح أن هذا الموقف الذي تمليه الحماسة المفرطة يضيق دائرة الأدب الإسلامي ، ويحول بينه وبين أن تكون له نظرية أو مذهب عالمي ، يأخذ به الأدباء الإسلاميون على مختلف جنسياتهم وشعوبهم ، ويصدرون عنه في لغاتهم القومية .. مادمنا نشترط أن يتعلموا العربية ، ويكتبوا بها حتى ندخل أدبهم في دائرة الأدب الإسلامي . ومن الواضح أن ما يذهب إليه بعض المتحمسين هنا غير مقبول (إسلامياً ولا إنسانياً ولا واقعيا) !!

هو غير مقبول إسلامياً ؛ لأن هذا الموقف يدخل في العصبية التي نهى عنها الإسلام ، وهذا الموقف يمثل نوعاً من الاستعلاء على الشعوب غير العربية [٢] والتي قصَّر العرب ـ وما زالوا مقصرين ـ في نشر اللغة العربية بينها . ومع شرف الدافع ونبل الغاية ، اللذين يدفعان هذا الموقف الحماسي فإن الإسلام يتيح للمسلم دون ريب أن يكتب الأدب بلغة قوية أو أي لغة شاء .

---

[1] د . عبد القدوس أبو صالح ـ مجلة الأدب الإسلامي العدد الثامن ربيع الثاني ١٤١٦هـ ص٧ . بتصرف

[2] وهذه قضية أخرى كانت سبباً في قيام الشعوبية ، لما استعلت بعض العرب على الفرس ، وكان للفرس رد فعل ، كما استعلت عرب الأندلس ـ لما استتب لهم الأمر ـ على البربر ، فكان للتاريخ معهم وجه آخر . !

وهو غير مقبول إنسانياً ؛ لأن فيه ظلماً للأدباء الإسلاميين من غير العرب ، حين ننكر عليهم أن يدخل نتاجهم في الأدب الإسلامي ، وإن كان صادراً عن التصور الإسلامي الصحيح . فإن الله عز وجل لم يخص العرب ولا الناطقين بالعربية بالمواهب الأدبية دون غيرهم من الناس ، ولم يحظر الإسلام على العرب أن يمارسوا نشاطاً إنسانياً هو في فطرة الناس وطبائعهم ، إذ يعبرون عن مشاعرهم تعبيراً أدبياً باللغة التي يتكلمونها ويكتبون بها .

وهذا الموقف مرفوض واقعياً ؛ لأنه يرفض هذه النظرة الضيقة فالشعوب الإسلامية بأسرها لها أدبها القومي أو المحلي المكتوب بلغتها، ولهذا الأدب وجود قديم قبل أن تسلم هذه الشعوب وبعد إسلامها . وما أدري ماذا يسمي المتحمسون ذلك الأدب الإسلامي الذي لا يؤخذ عليه من وجهة نظرهم إلا أنه لم يكتب بالعربية ؟ وكيف يميزونه عن الأدب المضاد للتصور الإسلامي ، والمكتوب باللغة التي كتب بها الأدب الملتزم بالإسلام ؟

وإذا كان كثير من أدباء الشعوب الإسلامية قديماً قد تعلموا العربية وصاروا من شعرائها وكتابها ؛ فذلك راجع إلى عزّ المسلمين الذي جعل العربية لغة الخلافة التي حكمت أنحاء الخلافة ، ولغة العلم والحضارة ، بالإضافة إلى أنها لغة القرآن التي يتعبد بها المسلمون على اختلاف أجناسهم.

أما أن نقصر الأدب الإسلامي على اللغة العربية وحدها ، فهذا أمر مستغرب ، وكثير من المذاهب الأدبية العالمية كالواقعية الاشتراكية والوجودية كتب أتباعها بلغات مختلفة ؛ لأن الجامع في المذاهب الأدبية العالمية من أسس عقدية أو نظرية أدبية أو منهج نقدي .. كل هذه الأمور لا تختص بها لغة معينة يحظر على أتباع المذهب الأدبي أن يكتبوا بغيرها.

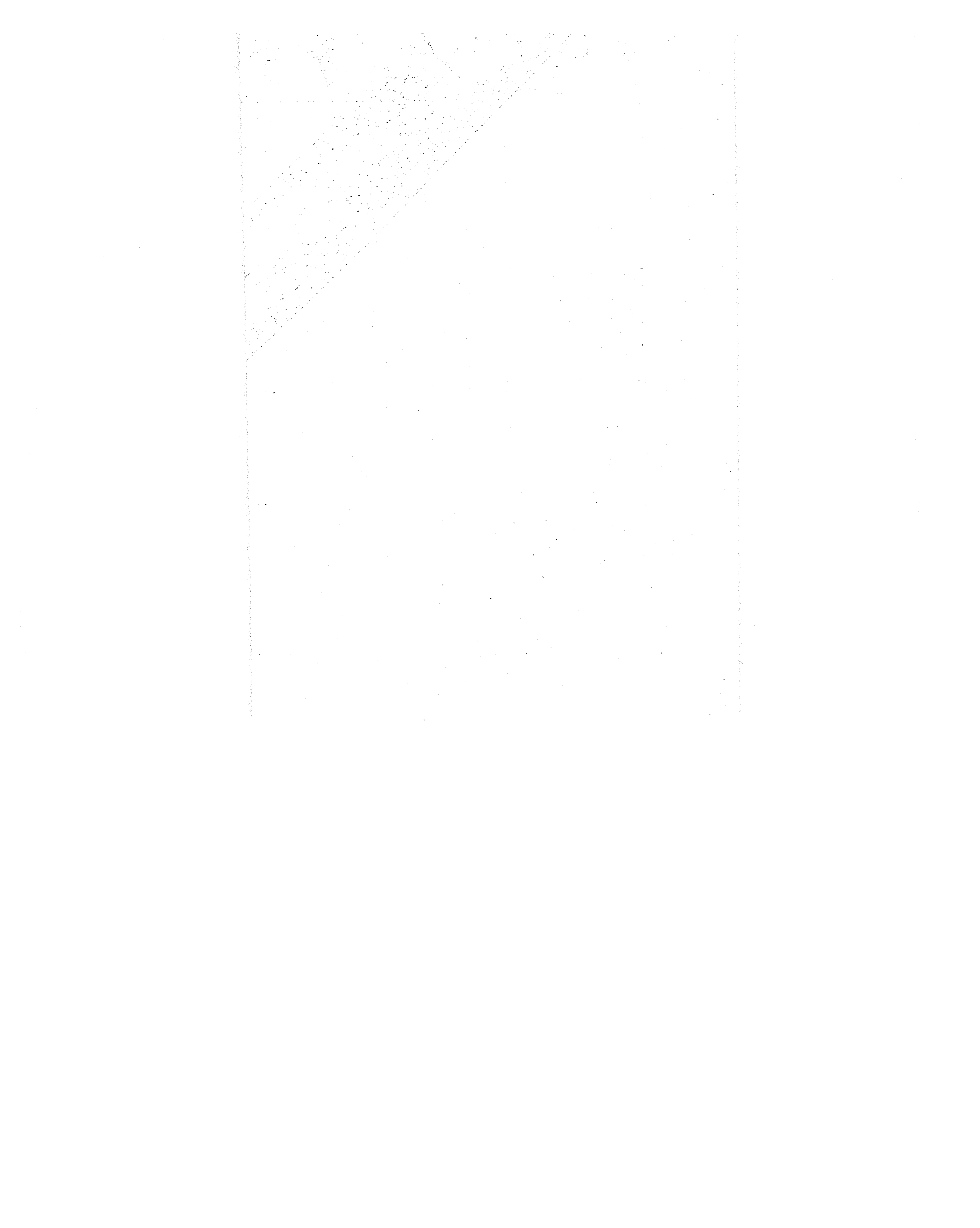
وها نحن أولاء اليوم نجد في الواقع الملموس أن هناك أدباً إسلامياً في مختلف لغات الشعوب الإسلامية .. ومن البديهي أن يكون بين آداب الشعوب الإسلامية خصائص وسمات مشتركة يمكن أن نصل إليها بعد دراسة الخصائص والسمات في كل أدب من هذه الآداب على حدة ، وهذا ما بدأت به مشكورة عمادة البحث العلمي في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، إذ نشرت كتباً متتالية عن الأدب التركي الإسلامي، وعن الأدب الأردي الإسلامي ، وعن الأدب الأفغاني .. ولعلها تمضي بتوفيق من الله في هذا العمل الجليل ، الذي يؤكد أصالة الأدب الإسلامي وعالميته .

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁



الفصل الأول :

في مجال البحث الأدبي



الوجهة الأدبية في إثبات الشفاعة المحمدية :

- ١ -

نشرت جريدة الأهرام أربعة مقالات لأحد الكتاب البارزين[١] أنكر فيها شفاعة النبي ﷺ للمذنبين من أمته زاعماً أنها دعوى للتواكل والوساطة والمحسوبية ، وتتنافى مع العدالة الإلهية ، كما تتنافى مع قانون الجزاء من نفس العمل ! واستدلَّ بآيات من القرآن الكريم تنفي الشفاعة مطلقاً ، ثم أنكر الأحاديث النبوية التي تثبت شفاعته ﷺ ولوجاً بها البخاري ومسلم ، زاعماً أن الله تكفل بحفظ القرآن ولم يتكفل بحفظ البخاري ومسلم !!

هذا كلام خطير أثار حفيظة جماهير الأمة ، واستنكار علماء الأزهر الشريف ؛ لأنه يهدم السنة وهي المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن ؛ كما يهدم الثوابت العقدية التي انعقد عليها إجماع علماء الأمة في ثبوت الشفاعة للنبي ﷺ وللملائكة وللصالحين من عباده .

- ٢ -

وقبل أن نستدل على ثبوت الشفاعة بالسنة نردُّ على من شك في حفظ الله للسنة ، كحفظ الله للقرآن ! ولا يجدي مع من منكري حفظ الله للسنة أن نرد عليهم بالسنة بل نردُّ [٢] عليهم بالقرآن الكريم :

ففي قوله تعالى : ﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا ﴾ [٣]هذا نفي قاطع لتحريف كتاب الله لفظاً ومعنى بما يفيد حفظ آياته وكلماته وسوره ومع هذا قال الله﴿ إنَّا نحن

---

[1] هو الدكتور / مصطفى محمود ـ والمقالات بتاريخ : ٤/٣ ، ٤/١٠ ، ٤/١٧ / ١٩٩٩م ، ٥/١/ ١٩٩٩م .

[2] راجع هدية مجلة الأزهر عدد ربيع الأول ١٤٢٠هـ ص/ ١١٣ وما بعدها من مقال للدكتور فاروق الدسوقي

[3] الكهف آية / ٢٧

نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون﴾ [1] فما هو الذكر بعد أن قطع الله بنفي تبديل كلمات كتابه ؟ هل الذكر هو القرآن فحسب ؟ أم الذكر هو القرآن والسنة معاً ؟ فالقول بأن الذكر هو القرآن الكريم فحسب دون السنة يؤدى إلي تكرار المعني ، وبأن تكون هذه الآية بجانب آية الكهف بلا فائدة مضافة وحاشا لله تعالي أن يكون في كتابه شئ بلا فائدة ! ومن ثم تكون فائدة هذه الآية الإخبار بحفظ السنة بجانب حفظ القرآن ، إلا أن آية الكهف تثبت انفراد الكتاب بالحفظ مبني ومعني في حين أن الذكر الذي منه السنة لا يلزم حفظه بالكلمة . وهناك دليل آخر في سورة يسن ، هو قوله تعالي : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ [2] فلو كان الذكر هو القرآن ما جمعهما ؛ لأنَّ ما بين حرفي القصر والحصر (إن ، وإلا) الضمير (هو) الذي يعود علي كل ما ينطق به النبي ﷺ منذ بُعث مبلغاً أمته ، وقد قال الله فيما يبلّغه ﴿ وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى﴾ [3] فكل ما يخرج من فيه ﷺ وحي من عند الله !.

فالذكر إذن هو السنة والقرآن المبين هو الكتاب ، ومن ثم يكون معنى قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون ﴾ أي ما أوحى به الله إلى نبيه من قرآن وسنة سيحفظه الله ! ويكون الضمير هنا في سورة يسن عائد على الوحي الذي تفصيله كل ما نطق به المصطفى ﷺ طيلة عمر النبوة المبارك ! وهذا يقيد وعد الله بحفظ السنة بآية حفظ الذكر

العجيب ! أن النبي ﷺ قد حذَّرنا منذ أربعة عشر قرناً مضت - من هؤلاء المتشككين في السنة - وهذا من أدلة صدقه - حين قال : " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه .. ألا يوشك رجل شبعان على أريكته - يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من

---

(1) الحجر آية /٩.
(2) سورة يسن آية / ٦٩ .
(3) سورة النجم آية / ٣ - ٥

حرام فحرموه ، وأن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله وصدق الله حيث يقول : ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [١]

- ٣ -

ولم تكن الشفاعة [٢] مثار خلاف بين المسلمين في الأجيال الثلاثة التي أطراها النبي ﷺ بأحاديثه التي تؤكد شفاعته ﷺ منها : ما رواه أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال : إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر " ولم يحك التاريخ جدالاً بين اثنين أو أكثر في جيل من هذه الأجيال الثلاثة حول الشفاعة أو غيرها من الغيبيات التي أخبر عنها الكتاب والسنة ومرجع هذا الإجماع هو أن المسلمين كانوا على علم ومعرفة كاملة بأسباب نزول الآيات والظروف التي واكبتها ، وقد عزَّ على أعداء المسلمين أن يروهم في هذا الجو من الهدوء والسلام في أنفسهم ، فأكل الغيظ أكبادهم ونهش الغل أفئدتهم فعقدوا الخناصر على تفريق جمعهم ، وجعلهم طوائف وفرقا ، يكفر بعضهم بعضا ، ويضرب بعضهم رقاب بعض ، فلما ذهب عهد النبي وتبعه عهد ضعفت فيه جذوة الإيمان أو كادت ، نهض خصوم الإسلام لإشاعة الشُّبه والمفتريات حول الإسلام ، فانتشرت النحل وتعددت الأهواء .!

والعجيب ! أن المسلمين يوم انقسموا على أنفسهم فرقا ، اتفقوا على أصل الشفاعة ، ولكنهم اختلفوا في الشافع والمشفوع له ، فالمعتزلة رأت أن الشفاعة إنما تكون لزيادة الثواب وزيادة الدرجات في الجنة لا لدفع العذاب أو إخراج العُصاة من النار ؛ لأن مرتكبي الكبيرة عندهم مخلد فيها ، فالمشفوع له عندهم هو صاحب العمل الصالح أومن قبلت توبته من المذنبين ، والشافع هو الله وحده ، بينما رأى أهل السنة

---

[1] هدية مجلة الأزهر العدد السابق ص/٦٧ ، والآية /٨٠ من سورة النساء .

[2] من حديث للدكتور/ عبد العزيز غنيم ، راجع هدية مجلة الأزهر العدد السابق ، ص٤١ وما بعدها .

الشفاعة بمعناها الأوسع فالشافع هو الله وملائكته وأنبياؤه وصالحوا المؤمنين ، والمشفوع له : كل مات على كلمة التوحيد وإن لم يعمل خيراً قط ! ولا حرج على فضل الله ، واستدلوا بما رواه مسلم والترمزي من حديث أنس - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : " يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة ."

- ٤ -

وقد استدل المنكرون للشفاعة بآيات من القرآن نفت الشفاعة مطلقاً ، وقالوا إنها تتعارض مع الأحاديث التي تثبت الشفاعة !

أقول : القضية متوقفة على فهم المراد من الآية ، وفهم المراد يستتبع أن تقرأ الآية من أولها إلى آخرها ، وأن تضم الآية إلى أختها في نفس الصدد ، حتى ولو كانت في موضع آخر ؛ لأن آيات القرآن يفسر بعضها بعضا ، فالله تعالى يقول :﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾[1] أي كتاباً تضم آياته بعضها إلى بعض ، ويؤيد بعضها بعضا ، وإليك مثالاً على ذلك ، هو قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾[2] فالآية هنا نفت ثلاثة أشياء تكون يوم القيامة: (البيع والخلة والشفاعة) أما نفي البيع ، فهو نفي مطلق ؛ لأنه خاص بالدنيا . وأما نفي الصداقة ، فليس على الإطلاق ، والدليل على ذلك آية أخرى في سورة الزخرف[3] ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ فنفي الخلة أي الصداقة يكون بين العصاة فقط حينئذ يتبرأ كل من أخيه ! أما بالنسبة للمتقين فالصداقة قائمة بينهم ، والحب دائم

---

[1] سورة الزمر / ٢٣ .
[2] سورة البقرة / ٢٥٤.
[3] سورة الزخرف/ ٦٧.

يجمعهم ، ففي الحديث الصحيح : " يحشر المرء يوم القيامة مع من أحب " ! !

إذن آية الزخرف هي التي فسرت آية البقرة ، وهي التي حكمت بأن النفي هناك ليس مطلقاً ، كما يبدو من أول وهلة ! أما نفي الأمر الثالث وهو الشفاعة : فلو قرأنا الآية التي بعدها مباشرةً وهي قوله تعالى: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [1] لوجدناها تثبت الشفاعة بطريق الاستثناء ، يقول العلماء : الاستثناء يؤكد القاعدة ، فلو قلت مثلاً: ما حضر عندي إلا فلان فمعناه : أنك تؤكد حضور هذا الفلان ، فقوله تعالى ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ يؤكد أن هناك شفاعة بإذن الله . وهذا الإذن يا ترى يكون لمن ؟ يقول الله ﴿ لمن يشاء ويرضى ﴾ والآية : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ [2] وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له ﴾ [3] فهذه آيات توضح المراد من النفي وتؤكد الشفاعة لمن رضي الله عنهم من خلقه ! فماذا نصنع بهذه الآيات أنستبعدها من كتاب الله أو نرفضها ؟ ! حاشا لله [4]

إن من أنكر الشفاعة جاء بجزء مبتور من الآية ، كمن قرأ ﴿ لا تقربوا الصلاة ﴾ (النساء /٤٣) وانصرف ! فهم أتوا مثلاً بقوله تعالى﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ [5] والآية أولها ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل

---

(1) لبقرة آية/ ٢٥٥ .

(2) النجم آية / ٢٦ .

(3) سورة الأنبياء آية/ ٣٨ وسورة سبأ آية/٢٣ .

(4) راجع هدية مجلة الأزهر العدد السابق من حديث للدكتور / إسماعيل الدفتار .

(5) سورة المائدة آية / ٣٦- ٣٧ .

منهم ولهم عذاب أليم يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾

وبعد : فلعلنا بعد النظر في آيات القرآن الكريم التي نفت الشفاعة مطلقاً ندرك أنها تتحدث عن الكفار أو في شأن من مات على الكفر . أما الآيات التي تثبت الشفاعة فهي تتحدث في شأن العصاة من المسلمين!

- ٥ -

وقد زعم الدكتور في مقالاته: أن **الشفاعة واسطة** ، والواسطة ممنوعة لقوله تعالى: ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ [١]

أقول : ذكرت شيئاً وغابت عنك أشياء ! فالآية تشير إلى العدل الإلهي إذا عاملك الله بمقياس العدل ، أما إذا عاملك الله بالفضل فلا حرج على فضل الله ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ [٢] فالله يجزي المسلم على الحسنة عشر حسنات ، وربما زادها إلى سبعين وقد يضاعفها إلى سبعمائة ضعف ، وقد يجعل الجزاء سراً ، وربما أعطى المسلم درجات إكراماً لوالديه ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾[٣] فالله يتفضل على الأبناء إكراماً للآباء ، ولا ينقص من أجر الآباء شيئاً فهذا فضل إلهيّ لا عدل .

وهذا الفضل للمؤمنين خاصة ، أما الكفار فالله يقول فيهم ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا ﴾ [٤] وإذا انتفى التساوي بين المؤمن والكافر في قبول الأعمال والجزاء عليها انتفى أن يخلد عصاة المؤمنين في النار ، فالخلود في النار للكافر فقط .

---

(1) سورة النجم آية / ٣٩ .
(2) سورة آل عمران آية/ ٧٤ .
(3) سورة الطور آية/٢١ .
(4) الفرقان آية /٢٣ .

وقد زعم الكاتب أن **الشفاعة دعوة للتواكل** ، وأن النبي شكا إلى ربه المسلمين المتكلين على شفاعته لهم من النار على الرغم مما ارتكبوه من المعاصي فقال :

﴿ يا ربِ إن قومي اتخذوا القرآن مهجورا ﴾ [1] فكيف يشكوهم ويشفع لهم ؟!

والذي جاء في تفسير ابن كثير وغيره :" أن الآية إخبار عما كان من مشركي قريش نحو القرآن من إهماله وإثارة الضجيج عند تلاوته .." فالآية في واد وما فهمه الكاتب في واد آخر "[2]

والمتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أن الله قرن (**الإيمان بالعمل**) ومعنى ذلك : أن الإيمان وحده لا يقبل عند الله ، ولن تجد آية واحدة تحدثت عن الإيمان إلا وقرنتها بالعمل ، كقوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنَّا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ وقوله تعالى: [3] ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ﴾ وهكذا اقترن الإيمان في جميع آيات القرآن بالعمل لفظاً أو بمعناه .

ولهذا حثَّ النبي ﷺ أمته على **العمل الصالح ونبذ التواكل** في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ " يا فاطمة بنت رسول الله اعملي خيراً فإني لا أغني عنك من الله شيئا يوم القيامة ، يا عباس عم رسول الله ﷺ اعمل لله خيراً فإني لا أغني عنك من الله شيئا يوم القيامة ، يا حذيفة ..."[4]

والإسلام معناه : الامتثال والانقياد لكل ما جاء به النبي ﷺ ؛ ولذا فالمسلم إنما يعمل بمقتضى الانقياد والامتثال ، وهو يدرك أن كل من

---

(1) الفرقان آية / ٣٠ .

(2) هدية مجلة الأزهر عدد ربيع الأول ١٤٢٠ هـ ص/ ٤٩ .

(3) الكهف آية / ٣٠، ١٠٧ .

(4) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي البرهان ج/١٦/ ١٩ .

التزم بالمنهج المستقيم فهو مظنة وعد الله لعباده بفضله ورحمته ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيما ﴾[1]

وما ادعاه الكاتب من أن الشفاعة تزكي فكرة المحسوبية ، وأنها تخل بقانون الجزاء من جنس العمل ..تفكير قاصر في جانب الله سبحانه ! والقائلون بهذا ، ما قدروا الله حق قدره ؛ لأنهم جهلوا أو تجاهلوا أن الله عز وجل لا يخضع لهذا القانون! فالله سبحانه إن غفر أو أعطى فبفضله ، وإن عاقب فبحقه . ومن يملك أن يثيب بفضله ، وأن يعاقب بعدله ، أو أن يصفح عن العصاة لحكمة يراها دون مُسَاءَلة ! لا يخضع لمثل هذا القانون !!

بل إن من حقائق هذا الدين أن العمل ليس سبباً في دخول الجنة ففي الحديث الصحيح " لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمته " !

فإذا كان دخول الجنة برحمة الله ، فلا يمتنع عقلاً أن تكون الشفاعة لنبينا ﷺ هي أحد أبواب تلك الرحمة !

وحينما وصف الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾[2] فلا يمتنع عقلاً أن تكون الشفاعة الممنوحة له من ربه هي الأداة الفاعلة لإظهار الصفات النبوية التي وصفه الله بها !

- ٦ -

وادعى الكاتب أن الله **أنكر على نبيه ﷺ أن يشفع في أهل المعاصي** لإنقاذهم من النار ، في قوله تعالى: ﴿ أ فمن حق عليه كلمة العذاب أ فأنت تنقذ من في النار ﴾[3]

---

(1) سورة الفتح / ٢٩ .
(2) سورة التوبة آية /١٢٨ .
(3) الزمر آية / ١٩ .

والآية نزلت في مشركي مكة ، وفي أبي لهب خاصة ، وهم مخلدون في النار ، وليس للنبي ولا لغيره أن يسأل لهم الهداية وكأن الله يقول لنبيه ـ وقد كان حريصاً على إيمانهم ـ أفأنت تهديه إلى الإيمان ، فتنقذه بإيمانه من النار ! إن الله لم يُرد ذلك !!

﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾[1] ثم علم الله نبيه أنه لا شفاعة للمشركين ولو كانوا قرابة له ، فقال سبحانه: ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربة من بعد ما تبين أنهم أصحاب الجحيم ﴾ [٢]

وقد ورد في صحيح البخاري أن الخلائق في يوم القيامة يذهبون إلى سيدنا آدم ويطلبون منه أن يشفع لهم فيقول : لست لها ثم يذهبون إلى سيدنا إبراهيم فيقول : لست لها ، فيذهبون إلى سيدنا موسى فيقول لست لها ، فيذهبون إلى سيدنا عيسى فيقول لهم لست لها فيذهبون إلى سيدنا محمدﷺ فيقول أنا لها أنا لها ، ثم يسجد تحت العرش ، ويظل ساجدا يناجي ربه بأسماء وكلمات لله سبحانه ، فيقول الله سل تعطه ، واشفع تشفع [٣] .!

وهو الذي من حسن حظوته يقو	ل أنا لها في ساعة الشدّات
بينا يقول سواه نفسي إنني	أخشى العقاب بهذه اللحظات
ولسوف يمنحه كوعد سابقٍ	منه الشفاعة دونما ريباتِ
فيقول : ربي أمتي فيقول : أد	خل منهم في عالىالجنات [٤]

---

[1] القصص آية / ٥٦ .

[2] التوبة آية / ١١٣ .

[3] ولعل المراد ـ والله أعلم ـ شفاعته ﷺ لجميع الخلائق بإزاحتهم من هول الموقف وتعجيل الحساب ، وهذه الشفاعة العظمى أوالأولى. أما الثانية فهي شفاعتة في إدخال قوم الجنة بغير حساب ، وهاتان خاصتان بالنبي محمد ﷺ. والثالثة : في إدخال قوم حوسبوا فاستحقوا العذاب ألا يعذبوا . والرابعة: في إخراج بعض المذنبين من النار . والخامسة : في زيادة الدرجات في الجنة لبعض أهلها.(راجع هدية مجلة الأزهر العدد السابق ص/ ٧٠ ، ٧٢ .)

[4] شاعر الحجاز عبد الحميد الخطيب (هدية مجلة الأزهر العدد السابق ص/ ٧)

وزعم الكاتب **أن المقام المحمود** في قوله تعالى ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا ﴾ [١] **هو مقام البشارة** ، وهذا خطأ ؛ لأن الله أثبت له البشارة في الدنيا ، فقال : ﴿ يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ﴾ [٢]

وإذا كان المقام المحمود هو البشارة وقد ثبتت في الدنيا ، فما الداعي لأن يأمرنا ﷺ عند كل أذان أن ندعوا له بهذا الدعاء ، في الحديث الذي رواه جابر عنه ﷺ " من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة وابعثه اللهم مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة "

وقد اتفق المفسرون على أن كلمة (عسى) من الله واجب . وعلل أهل المعاني لذلك فقالوا : لأن لفظة عسى تفيد الإطماع ، ومن أطمع إنساناً في شيء ثم حرمه كان عاراً ، والله تعالى أكرم من أن يطمع أحداً في شيء ، ثم لا يعطه ذلك !

والمقبول عقلاً أن الناس تحمد رسول الله فيصير محموداً لسعيهﷺ بمزيد من الإنعام عليهم ، ولا يجوز أن يكون الإنعام هو تبليغ الدين وتعليمهم الشرع ؛ لأن ذلك كان حاصلا في الحال ، ومن المعلوم أن حمد الإنسان على سعيه في التخلص من العذاب أعظم من سعيه في زيادة الثواب أو الدرجات ؛ لأن احتياج الإنسان إلى دفع الآلام أولى من تحصيل زيادة المنافع ! وإذا ثبت هذا كان المراد بالمقام المحمود هو شفاعته ﷺ في إسقاط العذاب عن عصاة المؤمنين . [٣]

---

(1) الإسراء آية /٧٩ .

(2) الأحزاب آية / ٤٦ .

(3) راجع هدية مجلة الأزهر العدد السابق من مقال للدكتور عبد المعز عبد الحميد الجزار رئيس تحرير مجلة الأزهر ص/ ٧٤

لقد حدث للنبي ﷺ ما هو أعجب من ذلك ، حيث كانت له شفاعة في الدنيا ! فحينما أراد الكفار أن يحرجوا النبي ﷺ بالتمادي في عنادهم فرفعوا أيديهم إلى السماء ، وقالوا ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ما ذا قال الله لنبيه ؟ قال : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ (١)
ولذلك قال النبي ﷺ محدثاً بنعمة ربه عليه : أعطاني الله لأمتي أمنين إذا انقضى أحدهما بقي الآخر ، فإذا مضيتُ إلى ربي بقي فيهم الاستغفار ﴿ وما كان الله معذبهم وهو يستغفرون ﴾

أليست هذه شفاعة للنبي في الدنيا ! ؟

وقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما ﴾ (٢)

أليست هذه شفاعة للنبي في الدنيا !؟

وإذا كان الله قد أعطاه هذه المنزلة في الدنيا فكيف يمنعه إياها في الآخرة ؟ إن الله يقول ، بعد قسم : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ (٣) فالآيتان جواب قسم مثبتتان بعد منفيين ، فقال النبي ﷺ لا أرضى وواحد من أمتي في النار !

- ٨ -

والمسلم يوم يموت من حقه على من حضر من المسلمين أن يصلوا عليه صلاة الجنازة ، ومعناها : أنك تتشفع إلى الله أن يخفف عنه وأن يتقبله وأن يضاعف حسناته ، وأن يحطّ عنه سيئاته وفي الحديث " ما من ميت

---

(1) الأنفال آية /٣٢ - ٣٣ .
(2) النساء آية /٦٤ .
(3) الضحى آية /٤- ٥

يموت ، فيصلي عليه أمة من الناس يبلغون مائة كلهم يشفع فيه بصدق إلا شفعهم الله عز وجل "
فصلاة الجنازة لون من ألوان الشفاعة ، وإذا كان الله يشفع بعضنا بعضا ، ألا يشفع فينا سيد الأولين والآخرين !؟

وأخيراً : لعل حسنة تتسب للكاتب ، أن اعتذر عما حدث ، وعزم على عدم الخوض في هذه القضية ، بعدما أسهم العلماء في جمع هذه المادة العلمية للمسلمين ، وإظهار الحقيقة للغافلين ، راجين شفاعته ﷺ ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم ﴾ [1] ويومئذ يشرُف منا أن يقول :

لمحمدٍ أنا أنتمي	أنا أنتمي لمحمد
والمنتمي لمحمدٍ	سيفوز يوم الموعد
هو قدوتي ووسيلتي	والنور للمسترشدي
بكتابه بطريقه	أنا أستضيئ لمقصدي
بجماله بخلاله	أنا سابح في معبدي
وأقبل الأرض التي	سعدت بمولد سيدى
لمحمدٍ أنا أنتمي	أنا أنتمي لمحمد

فاللهم احشرنا في زمرته ، وارزقنا شفاعته ، وأوردنا حوضه ، واسقنا من يده الشريفة شربة هنيئة ، لا نظمأ بعدها أبدا .. غير خزايا ولا نادمين ولا فاتنين ولا مفتونين ، واغفر لوالدينا وارحمهما آمين آمين يا رب العالمين .

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

---

[1] الشعراء آية / ٨٨ .

الحبُّ العذريُّ ومزاعم المستشرقين :

الحب بمعناه الأشمل ركيزة للإيمان ومنطلق إلى كل آفاق الوجـــود الإنساني ، ففي الحديث الشريف عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ : « من أعطى لله ومنع لله وأحب في الله وأبغض في الله فقد استكمل الإيمان » .

والحديث يدور حول أربعة أركان قوامها « حب طاهر » يشع نوره في القلب وتتقد جذوته في حناياه ، حتى يكون « الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » بل لا يوجد شيء في هذا الوجـــود الحادث إلا وهو مستند إلى حقيقة حب إلهية ، ولو لا ذلك ماصح لها أن تظهر ولا أن تعلم ، وإن من كمال العارف بالله حبه للنساء فإنه ميراث نبوي ولنتأمل قوله ﷺ « حُبب إليّ من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلتْ قُرة عيني في الصلاة » .

وكان أول من تعرّض لنشأة الحب العذري ، المستشرق "لوى ماسينيون" ورأى أنه مقتبس من الحب الأفلاطوني عند اليونان، ثم جاء المستشرق : "رينهارت دوزى" فأكد ذلك حين رأى أن ابن حزم عرف الحب العذرى لأنه من أصل مسيحى، ولأنّ عِرق المسيحية العفيف قد نبض فيه رغم إسلامه، ارتداداً لخصائص جنسه المسيحى الأسبانى.

فهو نموذج استثنائى لحب عفيف يسميه علماء النفس : الحب الأفلاطونى أو الرومانتيكى، وهو لون من الحب : ليس من خصائص الجنس العربى ولا الأدب الإسلامى، وكلاهما فى عواطفه الغرامية يستمدّ إلهامه غالباً من الرغبات الجنسية المبتذلة .

- وهذا الزعم باطل ومردود من عدة وجوه نجملها فيما يلى :

(أ)

١ - كون الإسلام لايعرف هذا النوع من الحب ولايعرف العفة قد ردّ عليه كثير من الباحثين الغيورين على الإسلام [١] : يقول د . رجب اليومى :

"لو كانت مسألة العفة فى الإسلام من الأمور المتشابهة التى تلتبس فيها الآراء وتحتاج إلى مجهر دقيق يبرز ما استتر من النصوص والأحداث لعذرنا "دوزى وماسيينون" فيما ذهبا إليه من التفسير ، ولو كان المستشرقان الكبيران ممن لم يتعمقوا هذه النصوص الصريحة ولم يتبينوا الوقائع المشاهدة لقلنا عنهما لقد فقدا الدليل وأعوزهما البرهان، ولكن الحب العذرى فى الإسلام برجاله وأحداثه وأشعاره .. أشهر من أن يجهله مبتدئ ناشئ يتلقى الدراسة الأولى فى الثقافة الإسلامية ! بل إن كتاب "طوق الحمامة" الذى جعلهما يصدران هذا الحكم الجائر ليضم فصلين طويلين عن "قبح المعصية" وفضل العفة فى الإسلام" وبهما من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مايكفى لإيضاح رأى الإسلام فى التمسك بالفضيلة والشرف والعفاف" [٢] .

٢ - وربط العفة بالدين أو اللون أو الجنس عمل غير علمى :

يقول د / مكى: إن ربط العفة بالمسيحية والتبذل بالإسلام فضلاً عن مخالفته للواقع التاريخى يتنافى مع بسائط أى منهج علمى مثله فى ذلك القول بأن مسلمى الأندلس الذين انحدروا من أصول رومانية كانوا أرقى فى عواطفهم من الذين عبروا

---

(١) منهم د . طاهر مكى . دراسات عن ابن حزم ص١٩٣ ، د . محمد حسن عبد الله . الحب فى التراث العربى ص٣١٢ ، د . أحمد الجوارى الحب العذرى نشأته وتطوره ص/٤٥ .

(٢) الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ص١٥٣ .

إليه المضيق فاتحين أو وافدين. إن المسيحين الذين اعتنقوا الإسلام فى الأندلس فقدوا شيئاً فشيئاً الإحساس بأصولهم التى انحدروا منها حتى إن بعضهم صنع له شجرة نسب عربية ترفعه إلى قبائل معروفة ومشورة، مقابل أثمان دفعوها ذهباً .. وماكان المرء يستطيع أن يفرق بين الذين صنعوا لهم نسباً عربياً والذين احتفظوا بألقابهم الرومانية .. لقد صنعهم الإسلام على هواه، وصاغ منهم مجتمعاً متجانسا [١]

٣ - وماذا لو لم يتمكن المحب من الزواج بمحبوبته (وللحب سلطان على النفس لايملك) !! .

قضية معقدة ، أشار إليها المجنون بقوله :

قضاها لغيرى وابتلانى بحبها فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا!

لهذا يدرك الإسلام المسلمين - وهم بشر - فيضع بين أيديهم مايعوضهم عن المعاناة والصبر دون ارتكاب المعصية، فيرشد المسلم إلى أنه قد يرتقى بحبه إلى درجة الشهداء!

نعم : فقد روى ابن عباس عن النبى (ص) قوله : "من عشق وكتم وعفّ وصبر، فمات مات شهيدا" [٢] .

---

(١) دراسات عن ابن حزم د . طاهر مكى ص٢٠٦ .

(٢) حديث صحيح قال الإمام العلامة الحافظ علاء الدين أبو عبد الله مغلطاى فى كتابه "الواضح البين" : هذا حديث إسناده صحيح .. ونقل أن هذا الحديث سنده كالشمس لامرية فى صحته ولالبس .

قلت : ولهذا عدّ جماعة من الفقهاء ميت العشق من الشهداء أخذاً بهذا الحديث . منهم الرافعى وغيره . وقال الشيخ محى الدين النووى" :

والميت عشقا والميت طلقا" يعنى الشهداء ، هذا مع شدته فى الدين وعدم مساهلته فى هذه الأشياء، ومأأحسن قول ابن الأثير : دمع العاشق ودم القتيل متساويان فى التشبيه والتمثيل إلا أن بينهما بونا لأنهما يختلفان لونا . وقال الإمام العلامة أبو الوليد الباجى =

فاندفع المسلمون بذلك إلى الزهد والتقوى أو العذرية كما صارت تسمّى، إذ وجدوا - فى إسلامهم - مايوفّقون فيه بين الزهد ومطالب العاطفة، نجد هذا المعنى فى قول جميل :[1]

لكل حديث عندهن بشاشة	وكل قتيل عندهن شهيد
يقولون جاهد ياجميل بغزوة	وأى جهادٍ غيرهنّ أريدا

حتى إن سكينه بنت الحسين، وكانت تعقد الندوات فى بيتها للنقد والأدب قد فضلت "جميلاً" على "جرير" معللة لذلك بقولها :

"إنه جعل حديثنا بشاشة، وقتلانا شهداء"[2] .

ويذهب بعض الكتاب إلى احتمال أن يكون الحب العذرى ردّ فعل طبيعى للغزل اللاهى فى مدن الحجاز، فحين رأى أهل البادية التحلل الخلقى الذى انزلق إليه أبناء المدينة، دفعهم ذلك إلى اتخاذ مسلك آخر حيال هذه العاطفة .

وذلك بإبرازها فى ثوب جديد يرضى عنه الخلق، ويوفق بين مطلب الجسم والروح معاً[3] .

= إذا مات المحب جوىً وعشقاً فتلك شهادة ياصاح حقاً
رواه لنا ثقاتٌ عن ثقاتٍ إلى الحبر ابن عباس تَرَقّى

(راجع مصارع العشاق لابن السراج جـ١/٧ ط الأولى بمصر) .

وهذا الحديث مقبول عند فقهاء الظاهرية والحنابلة ويذكر ابن الجوزى فى مخطوطه بباريس رقم (١٢٩٦) اثنى عشر اسنادا ويقبله "ابن العربى" فى محاضرة الأبرار ومسايرة الأخيار ويشرحه. ويذكره "داود الانطاكى فى تزيين الأسواق ص٦ (راجع الحياة العاطفية د. غنيمى هلال ص/٣٥) .

(١) الأغانى جـ١٤/١٦٦ ط بولاق .

(٢) المرجع نفسه جـ ١٠٤/٨ .

(٣) الحب ومذاهبه النفسية والجمالية د . الصادق عفيفى ص١٣٢ .

ونرى حرص الخلفاء على عفة المسلمين وهم فى أحرج المواقف، فهذا عمر يسمع ليلاً - وهو يتفقد الرعية - امرأة تقول :[(١)]

ألا طال هذا الليل وازورّ جانبه ... وليس إلى جنبى خليل ألاعبه

فو الله لولا الله تخشى عواقبه ... لحرك من هذا السرير جوانبه

مخافة ربى والحياء يعفننى ... وإكرام بعلى أن تُنال مراتبه

فسأل عمر - رضى الله عنه - عنها فقيل له : إنها امرأة فلان وله فى الغزاة ثمانية أشهر فأمر - رضى الله تعالى عنه - ألا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر" .

وقال الإمام على - كرم الله وجهه - "أكفف أبصار النساء بالحجاب فإن شدة الحجاب خير لهن من الارتياب، وليس خروجهن بأضر من دخول من لايوثق به عليهن فإن استطعت ألا يعرفهن غيرك فافعل"[(٢)]

ويقول إبراهيم بن محمد المهلبى :[(٣)] .

كم قد ظفرتُ بمن أهوى فيمنعنى ... منه الحياء وخوف الله والحذرُ

وكم خلوت بمن أهوى فيقنعنى ... منه الفكاهة والتأنيس والنظر

كذلك الحبُ لاإتيان معصيةٍ ... لاخيرَ فى لذة من بعدها سقر!

(١ , ٢) المستطرف من كل فن مستظرف جـ٢ / ٣٥٤ .

(٣) المرجع نفسه ص/٣٤٨ وفى مصارع العشاق جـ١ / ١٥٩ "إبراهيم بن عرفة" .

(ب)

-١-

وإذا كان الإسلام برجاله وأحداثه ومبادئه قد دحض مازعمه المستشرقون، فلا نسلم أيضاً بأن العرب فى الجاهلية لم يعرفوا هذا النوع العفيف من الحب، والأمثلة كثيرة، ربما خرجنا عن إطار موضوعنا، لكننا يمكن أن نقرر - فى اطمئنان - أن جميع أنواع الحب قد عرفت فى الجاهلية .

وإنه لمن الجور والسذاجة معاً أن نحكم على أمة بأسرها حكماً تنسلك فيه بعواطفها دون استثناء .!

وقد نحسن الظن فنقول : ربما قصد المستشرقون أن الحب العذرى لم يعرف من الناحية الأيدلوجية بحيث لم يمثل ظاهرة تعرف بها، لكن يبقى الهدف البعيد وهو : الطعن فى أنساب العرب وعواطفهم..!

وإن مما يدل على تقدير العرب **لفضائل الحب الروحية** : اهتمام عظمائهم بالحب والحث عليه فقد سأل "ذو الرئاستين" أحداثا من أهله (بعث بهم إلى شيخ يعلمهم) هل فيكم عاشق ؟ قالوا : لا ، قال اعشقوا ، فإن العشق يطلق الغبى ، ويفتح جبلّة البليد، ويسخّى كفّ البخيل، ويبعث على النظافة وحسن الهيئة، ويدعو إلى الحركة والذكاء وشرف الهمة، وإياكم والحرام" [(١)] .

-٢-

وإذا ذكرت كلمة العذرية، ذكر معها قبيلة بنى عذرة العربية، وقد اشتهرت بالعشق العفيف ، من ذلك ماروى عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : كنا عند عـروة

---

(١) المستطرف من كل فنى مستظرف جـ٢ / ٣٤٦ .

بن الزبير[١] وعنده رجل من بنى عذرة فقال له : ياعُذرى بلغنى أن فيكم رقة وغزلا فأخبرنى ببعض ذلك ! فقال : لقد خلفت[٢] فى الحى ثلاثين مريضاً مابهم داء إلا الحب قد خامر قلوبهم وأن فيه من المرارة والنكد والكمد ماهو مستعذب عند أربابه مستحسن عند أصحابه حلو لاتعدله حلاوة، ومر لاتعدله مرارة ثم أنشد :

ياأيهـا الرجل المعذّب بالهـوى	إنـى بأحوال الهـوى لعليـم
الحب صاحبـه يبيـت مسهَّـدا	فيطيـر منـه فـؤاده ويهيـم
والحب لايخفـى وإن أخفيتـه	إن البكـاء علـى الحبيب يدوم
والحب فيـه حـلاوة ومـرارة	والحب فيـه شقـاوة ونعيـم
والحب أهـون مايكـون مبـرّح	والحـب أصغر مايكون عظيم

ولايعنى نسبة الحب العذرى إلى بنى عذرة أن هذا النوع من الحب لم يوجد عند غيرها، وإنما هو مثل واضح وثقّه التاريخ وشهود العيان، وإلا فبماذا يجيب المستشرقون عن عشاق زاع صيتهم فى الحب العذرى، أمثال عروة بن أذينة، وعبيد الله بن عتبة، وعبد الرحمن القس، وجميل بثينه، وكثير عزة، وقيس وليلى وقيس ولبنى، والمرقش وأسماء وعروة وعفراء، وذى الرمة ومىّ، وتوبة وليلى الأخيلية ..!

والتقاء هؤلاء المحبين من الفقهاء والشعراء على طريق واحد رغم اختلاف العصور، يؤكد أن تلك العاطفة قد وجدت مرتعا خصباً فى البيئة العربية، وليس للثقافة الوافدة أثرٌ فى إظهارها .

وقد ينسب المسيحيون أو المستشرقون العذرية إلى مريم العذراء، أو إلى طقوس المعبد، وينسبها العرب إلى بنى عذرة وقد يثبت غيرهم وجودها فى أمة أخرى

---

(١) تابعى وأحد فقهاء المدينة السبعة وهو حجة فى رواية الحديث (أخبار النساء ص٦٧) .

(٢) فى الأصل : خلف ولعل الصواب ماأثبتناه .

ونحن لاننكر وجود الحب العذرى عند غيرنا - رغم أن سلامة النسبة (لغوياً) تؤكدها لبنى عذرة فتقول فى النسب إليها (عذرىّ) - رغم هذا لاننكر وجوده عند غيرنا، وربما فى كل أمة لكن مايهمنا هو بطلان ذلك الزعم من جهاته المتعددة والفطنة إلى أبعاده البعيدة الهدّامة .

(جـ)

وربط المستشرقين - أو غيرهم - العذرية بالحب الأفلاطونى نوع من الخلط يجانب الصواب، فالحب العذرى يختلف عن الحب الأفلاطونى من عدّة وجوه: [1]

١ - يتضح للدارس أن الحب الأفلاطونى - كما جاء فى كتاب المائدة - يقوم فى مدنية ناضجة لها علومها وفنونها، بينما يقوم العذرى فى بداوة .

٢ - الأفلاطونى : علمى عقلى يعبّر عن نفسه بتعابير علميه عقلية والعـذرى : عاطفى يعبر عن نفسه بتراكيب شعرية خيالية وتسيطر إرادة المحب الأفلاطونى على حبه فتسيره فى طريق مرسوم أما المحب العذرى فهو مسير بعاطفته المحمومة الصادقة، لايدرى إلى أين تؤدى به ولاكيف تنتهى آلامه .

٣ - الأفلاطونى وسيلة للخلق والإبداع والإنتاج أى ليس غاية بذاته بينما العذرى غاية بذاته لأنه ثورة نفسية تكبتها التقاليد الاجتماعية فى صدر صاحبها كبتا يؤدى إلى الهلاك غالباً .

٤ - فى الحب الأفلاطون يلزمك معلم .. ولاينفتح عقلك للجمال المطلق إلا بعد أن تكتوى بنار العلم والفن والحكمة وليس من ذاك شىء فى العذرى .

---

(١) راجع الحب العذرى . موسى سليمان ص٤٨ ، ٤٩ .

٥ - للحب الأفلاطونى موضوع نهائى هو الله أو الجمال المطلق المجرد عن المخلوقات والآخر موضوعه المرأة .

٦ - فى الحب الأفلاطونى ينجذب المحب إلى الجمال المطلق والعذرى تمنعه التقاليد العربية الموروثة من الاقتراب من المحبوب .

٧ - الأفلاطونى - رغم أنه مثالى - أقرب إلى حقيقة الإنسان من العذرى القاصر على جماعة من البشر لها طباع ومزاج خاص وتقاليد موروثة أباً عن جد، فالأول حب صحىّ عام والآخر مرضى خاص ، ولهذا كله نرى أن العذرية أقرب إلى العربية منها إلى الأفلاطونية .

❊ ❊ ❊ ❊

بين التبعية والموسوعية

تقاطرت الدراسات الموسوعية التى عرضت للحب عبر مساحة زمنية شاسعة منذ القرن الثانى الهجرى دون توقف بحيث تمثل دائرة معارف عن الحب ومايتعلق به، وقد أكدت هذه الكثرة - عبر القرون - أن الحب ظاهرة كل العصور .

الجدير بالذكر أن بعض أصحاب تلك الموسوعات التى تضمنت فصلاً أو أكثر عن الحب يسبق - زمنياً - أصحاب الدراسات المتخصصة، فابن قتيبة - مثلاً - سابق على ابن داود، والجاحظ سابق عليهما معاً، وبينهما اقتباسات، قد لاتضيف جديداً ذا بال بالنسبة للدراسات المتخصصة إلا أنها عرضت للحب على أنه لون من ألوان العلاقات الاجتماعية والإنسانية، أو على أنه لون من ألوان التعبير عن الذوق العام فى أمور تتعلق بتلك العاطفة الإنسانية .

وطبعى أن يكون لكل فقيه دافعه الخاص لتأليف كتابه، وفرق بين من يُسمى كتابه "طوق الحمامة" ومن يسميه - فى الغرض ذاته - "ذم الهوى" ففى الأولى : شاعرية وحلاوة فى السمع والنفس . وفى الأخرى : نزعة استنكار ورغبة فى التنكير. ومنهم من تناول الحب بشىء مباشر، ومنهم من حام حوله ومن توغل فى محاذيره وهو يستعيذ بالله من سوء العاقبة ...

-١-

فابن قتيبة (٢٧٦هـ)[١] فى كتابه الموسوعى "عيون الأخبار" يخصص الجزء العاشر منه عن "النساء" وحديثه يتجاوز بالطبع (موضوع الحب) شأن أصحاب

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفى، ولد بها، وإنما سمى الدينورى لأنه كان قاضى الدينور، فهو من أعلام الإسلام، وإمام حجة من أئمة العلم، وكان لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة فإنه خطيب أهل السنة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة .

الموسوعات، فهو يبدأ بالأحاديث الشريفة التى تحث على العفة واختيار الزوجة الصالحة، ويروى كثيراً من الأقوال حول أخلاق النساء، ومايستحب من صفاتهن العضوية والنفسية، ونجد له بعض الأقوال التى تدل على رؤية نافذة مثل : "إياكم والمذكرة فإنها لاتنجب" والمراد المرأة التى تتشبه بالذكور ومثل : "بنات العم أصبر، والغرائب أنجب، وماضرب رؤوس الأبطال كابن أعجمية" وغير ذلك مما يقره الواقع والعلم الحديث .

وتحت عنوان "الأكفاء من الرجال" يبدأ بالحديث : "إذا جاءكم من ترضون خَلْقه وخُلقه فزوّجوه إنكم إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير"[1] ثم يذكر أمثلة عديدة من أقوال الصحابة وكذلك من الأشعار والأخبار التى تؤكد حرص العربى والعربية على الكفاءة فى الزواج والإحساس بالمهانة والمعرّة إذا مااضطر إلى النزول عن مستوى قبيلته لأمر ما، فضلاً عن مجاوزة الدم العربى إلى سلالة أجنبية[2] .

ويشير إلى المقاييس التى كانت تبنى عليها المرأة اختيارها إذا تساوى الفضل وكرم الأصل فى أكثر من رجل فيروى قصة أربعة من فضلاء الصحابة وقد تقدموا - واحداً بعد الآخر - لخطبة أم أبان بنت عتبة بن ربيعة، بعد أن مات عنها يزيد بن أبى سفيان، وقد خطبها ابن الخطاب ثم الزبير ثم على بن أبى طالب ثم طلحه فأجابت (طلحة) - دون السابقين - فتزوجها فدخل عليها على بن أبى طالب فقال لها : "رددت من رددت منا، وتزوجت ابن بنت الحضرمى" ، ثم قال : "أما إنك تزوجت أجملنا مرآة وأجودنا كفا وأكثرنا خيراً على أهله!" فكأنه بذلك حدد الأسباب التى فضلت بها هذه المرأة رجلاً على آخر ينازعه منزلته .

---

(١) عيون الأخبار جـ١٠ / ١٠ والحديث رواه الترمذى .

(٢) عيون الأخبار جـ ١٦/١٠ .

أما الصفات الحسية فإنها تدور حول المرأة أكثر من دورانها حول الرجل، ولم يهملوا الصفات النفسية بل أخذت الصدارة فى كلام العقلاء والمجربين. [1]

ويمضى ابن قتيبة متأثراً بالجاحظ، فيعرض لسياسة النساء، ومعاشرتهن، ومساوئهن، والقيان، والغناء، والنظرة والقبلة .. والفرق بينه وبين الجاحظ : أن الجاحظ له رأى واضح فى كثير من القضايا، كإباحة النظرة والاحتجاج لذلك . أما ابن قتيبة فقد اكتفى بتجميع الأخبار، وترك لقارئه أن يستشف منها مايريد . وقد ختم الكتاب بأحاديث عن العشاق غير الشعراء ، وهى تقوم على مادة قصصية، كقصة عبد الرحمن القس وسلامة المغنية . (وقد سبق ذكرها) ومن أقواله فيها غير ماتقدم: [2] .

ألـم ترها لايُبعد اللــه دارهـا	إذا مَرحتْ فى صوتها كيف تصنعُ
تمـد نظـام القــول ثم تـردّه	إلـى صلصـل فى حلقها فترجِّعُ

-٢-

ويعقد **الراغب الأصبهانى**[3] (٥٠٢هـ) باباً "فى الغزل ومايتعلق به" فى كتابه الموسوعى " فى محاضرات الأدباء" فيعرض لماهية العشق، ونجد صدىً للأسطورة اليونانية - السابق ذكرها - والتى تشير إلى أن كل واحد من الجنس البشرى نصف ناقص لواحد كل . وغاية كل نصف البحث عن نصفه الآخر ..!

ويضع الأصبهانى عنوناً جديداً (سبق به ابن الجوزى) وهو : "ماجاء فى أوصاف الهوى وأحوال العشاق" فتناول الهوى وبحث فى أحوال فروعه، وأنواعه. أما الدراسات السابقة عليه فكانت تتجنب كلمة "الهوى" وتفضل فى مكانها "المحبة" فـإذا

---

(١) عيون الأخبار جـ ١٠ / ٥٨ والحب فى التراث العربى ص ٢٤٣ بتصرف .

(٢) عيون الأخبار جـ١٠ / ١٣٥ .

(٣) هو ابن مليكه من فقهاء التابعين وقضاة المسلمين كان يلى قضاء الطائف . لابن الزبير (أدب الفقهاء ص ٩٠) .

أرادت أن تجعل من المحبة شعوراً إنسانياً مقروناً أو دافعاً لبعض الشهوات وضعت له إسم "العشق" وعلى هذا يمكن أن تقرر : "أنه أول من استعمل كلمة الهوى فى هذا المجال بالمعنى العصرى الذى نستعملها له اليوم، وهو المرادف للحب أو الحب الشديد"(١) .

ونلحظ تأثر الأصبهانى بابن داود كثيراً، فهو يتطرق إلى "ذكر من عشق من الكبار" فيذكر عشق داود عليه السلام لامرأة أوريا، وماكان من تحاكم بينهما، أشار إليه القرآن الكريم من قصة (التسع والتسعين نعجة) .

وقد عرج الأصبهانى إلى قصة يوسف - عليه السلام - والتى تعدّ القاسم المشترك لكل مايكتب عن الحب أو المرأة أو العفة . ويستمر فى طريق ابن داود حين يرى أن : "التذلل للحبيب من شيم الأريب" وهذه العبارة بنصها عنوان الفصل السادس من النصف الأول من الزهرة، وإن وضع الأصبهانى كلمة "الأريب" بدلاً من "الأديب" ولعله فارق بين شعورين تجاه الظاهرة الواحدة .

كما تأثر بابن داود فى نظرته (لكمال الحب العفيف) والوحدة فيه، فيروى قول رجل لامرأة : قد أخذت قلبى فلست استحسن سواك ! فقالت إن لى أختاً هى أحسن منى ها هى ذى خلفى ! فالتفت الرجل، فقالت : ياكذاب، تدّعى هوانا وفيك فضل لسوانا" ومثل هذه الأخبار أو القصص الموجزة مصنوعة لتأكيد مفهوم الحب، وأنه حالة من امتلاء الإحساس والشعور بشخص واحد لايصح أن يشاركه أحد غيره؛ ولهذا يوصف مثل من وقع فى هذا الخطأ بأنه غير محب، وليس بالغباء..(٢)

كما نلحظ تأثره بابن داود فى رصد علامات الحب : فهناك من هيّجه الحمام بتغريده، أو الريــح بهبوبه أو تذكر بالنار الموقدة، أو استطاب التوديع طمعاً فى لقـاء

---

(١) الحب فى التراث العربى ص ٢٥١ .

(٢) راجع الحب فى التراث العربى ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

الحبيب، أو أعرض عن الحبيب خشية الرقيب .. كما يمضي إلى بعض المعانى الدقيقة التى سبق إليها ابن داود مثل : التضليل بإخفاء المحبوب عن الناس، والتكتم بإظهار الهوى فى غير المحبوب، وكتمان الهوى عن المحبوب .. وهو يعرض لأنواع العشق بقوله : "قال العلماء : الهوى أنواع أوله العلاقة وهو الشىء يحدثه النظر والسمع فيخطر بالبال، ثم ينمو فيصير محبة والحب اسم مشترك يجمع ضروباً من ميل النفس كحب الولد والمال، ثم الهوى، ثم المودة، ثم الصبابة، ثم العشق، ثم الوله والهيام، والتتيم وهو أرفع درجات الحب لأنه التعبد"[1]

وللراغب الأصبهانى نفسه شعر رقيق فى معنى قول شوقى : (الحياة الحب والحب الحياة) يقول :

من عاش فى الدنيا بغيـر حبيب	فحياتـه فيها حيـاة غريـب
ماتنظر العينـان أحسن منظـراً	من طالـب إلفاً ومـن مطلـوب
ماكـان فى حـور الجنـان لآدم	لـو لم تكن حواءُ من مرغـوب
قد كان فى الفردوس يشكو وحشة	فيهـا ولم يأنـس بغير حبيـب!

حقاً : فالخلى من نوازع الحب كالغريب، لايجد رفيقاً ولاصديقاً يأنس به ويشاطره أفراحه وأتراحه، ولذلك كان منظر الحبيبين أحسن منظر تقع عليه العين .!

والأعجب أن الأصبهانى يفرغ الجنة من جميع الرغائب - على كثرة مافيها - إذا لم تكن فيها حواء تبادل آدم حباً بحب، حتى الحور العين لاتملأ ذلك الفراغ . حقاً : هو معنى بديع لم يسبق إليه ، وفيه طمأنينة وسكينة لعقائلنا، ورفيقاتنا من الجنس اللطيف اللائى يتبرّمن كثيراً بالحور العين، ويستوحشن من مشاركتهن لهن فى الجنة! فهـذا القاضـى الفقيه : يبين أنه لاجمـال حـور العيـن، ولاشىء مما فى الجنة مـن المغريات يصرف الأحباب عن أحبابهم، وبخاصـة الرجـل عن شريكته فى الحياة الأولى

---

(١) راجع محاضرات الأدباء للأصبهانى جـ٢ الحد الثالث عشر ص ٣٩ - ١٣٣ .

لأن مابينهما أسمى وأعلى من كل ذلك ! إنه رباط روحى وامتزاج قلبيّ بدأ منذ كانا متجدلين فى الطين، ومازال ينمو ويقوى ويجذب هذا نحو هذه حتى اندمج كل منهما فى الآخر، وأصبحا ذاتاً واحدةً تجرّ وراءها من الذكريات بقدر ما اشتبكت به حياتهما الماضية من العلاقات.(١)

-٣-

أما ابن السراج القارىء البغدادى (٥٠٠ هـ) فكتابه "مصارع العشاق" يعد أهم وأضخم مصدر لقصص العشاق العذريين الذين صرعهم الحب على أنواعهم، ويقع الكتاب فى اثنين وعشرين جزءاً - فى أصل وضعه - قدم مؤلفه لكل جزء بمقطوعة غزلية من نظمه ثم حشد الأجزاء بروايات وأخبار وأشعار، يوردها دون تحليل أو نقد أو موازنة. وربما وجدنا منها مالايقبله العقل كبعض القصص على لسان الحيوان أو مصارع عشاق الجان، أو هاتف الجبل الذي دلّ ببيتين أنشدهما على المكان الذى مات فيه عاشقان اختفى أثرهما، وغير ذلك من حوادث الموت السريع على أثر شهقة شهقها عاشق أو عاشقة .

وروايات الكتاب خليط من جاهلى وإسلامى وأموى وعباسى وكلها نزيه يسوده العفاف وخوف الله وعذاب الآخرة. حتى إن الذى يحتوى شيئاً من روح التراخى الأخلاقى ينتهى بالتوبة إلى الله واستغفاره تعالى(٢) . وقد حاول السراج فى الجانب الأكبر من قصصه أن يؤكد خلود العاشقين وأن يبرز ملامح النساك منهم والذين يخافون الله وأن يربط بين (العشق والتقى والعفة) وتركنا نفهم أن الدين يُسهم بقدر فى توجيه الحب وجهة عفيفه، فعشاقه يؤكدون من خلال تعاملهم على الوازع الدينى وأنه يحول بينهم وبين ارتكاب المعاصى أو يحملهم على إخفاء عواطفهم فصاروا أمثلة للتضحية والوفاء، وهو فى كل الحالات رجل إخبارى لايحلل ولايـدرس

---

(١) راجع أدب الفقهاء عبد الله كنون ص٨٩ - ٩٠ .

(٢) راجع مصارع العشاق جـ ١ / ٥ ط بيروت .

ولايدفع لك بالنتائج، ومع ذلك فقصصه يهدى إلى تفسير لظاهرة الحبّ العذرى فى بغداد ... ويعكس - دون شك - ذوق الذين أقبلوا على هذه القصص . وابن السراج فقيه خائف يتوجس شراً من وراء رواياته فيوردها مسندة كأنما يريد أن ينفض يديه من مسئوليتها ويوصد الباب دون مشاعره.[1]

وفى عصر ابن السراج كان للغلمان المرد وقع فى نفوس كثير ممن عشقوا جمالهم، ويعرض ابن السراج لأخبار هؤلاء الغلمان كثيراً[2] على أنها ظاهرة واقعية .

ولابن الساج قصائد غزلية كثيرة - فى كتابه - وكثيراً مايستفتح بالغزل أغراضاً أخرى كالمديح على عادة القدامى [3].

وتأخذ "العفة والوفاء" حيّزا كبيراً فى مصارع العشاق من خلال قصص الحب العذرى فيروى مثلاً عن بنى عذرة (جـ١/٤٢) ثم يحكى قصة من أنشد :

نقّل فؤادك حيث شئتَ من الهوى ... ماالحبُّ إلا للحبيب الأول

ثم سقط مغشياً عليه (جـ١ / ٤٣) .

ويروى قصة وفاء ابنة عم "النعمان بن بشير" لزوجها الذى مات فى الغزو، فرثته بأبيات، فلما فرغت من الشعر شهقت شهقة فماتت ! (جـ١ / ٤٩ - ٥٠) ثم يذكر الحديث المروى عن ابن عباس : "من عشق فعف فمات دخل الجنة" ويعلق عليه بأبيات لنفسه منها : (جـ١ / ١٠٤) .

ولقد خلوت بها وأبـ ... ـعدتُ العذارى والعجائز

ليـلاً، فكـان عفافنـا ... مابيننـا والصـون حاجـز

حاشـا صحيـح الحب يو ... ماً أن يقـامَ مقـام ماعـز

(١) راجع دراسات عن ابن حزم د / مكى ص ٣٣١ .

(٢) راجع على سبيل المثال ص ٣٢ ، ٨٤ .

(٣) مصارع العشاق جـ١ / ٣٤ ، ٦٥ .

يريد ماعز بن مالك الذى أقرّ على نفسه بالزنا ورجمه النبى (ص) .

ويحكى قصة "سيد العشاق" عن أبى عمر بن حيويه مرفوعاً إلى مصعب بن عبد الله بن الزبير قال : عشق رجل من ولد سعيد بن العاصى جارية مغنية .. وهو لايُعلمها بذلك، ثم إنه ضجر فقال : واالله لأبوحَنّ لها فأتاها عشية فلما خرجت إليه، قال لها : بأبى أنت أتغنين :

أتُجزُون بالـود المضاعَف مثلـه فإن الكريـم من جَزَى الودّ بالـودِ

... ويلغ عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة، فابتاعها له وأهداها إليه فمكثت عنده سنه ثم ماتت فبقى مولاها شهراً أو أقل ثم مات كمداً عليها فقال أبو السائب المخزومى : حمزة سيد الشهداء، وهذا سيد العشاق، فامضوا بنا حتى ننحر على قبره سبعين نحرة كما كبّر النبى (ص) على قبر حمزة - رضى الله عنه - سبعين تكبيرة. قال : ويلغ أبا حازم الخبر، فقال : مامن محبٌ فى الله يبلغ هذا إلا ولىّ[1] .

ويروى قصة أبيات رواها كثير على قبر عزة، وقصة من مات على قبر حبيبته[2] كما يروى عن الأمم السابقة بعض الإسرائيليات التى تحث على ثواب "العفة"[3] على أن قصة "يوسف" - عليه السلام - تُعدُّ (القاسم المشترك) لكل من تناول العفة وابن السراج يمزجها ببعض الإسرائيليات التى تؤكد مغزها وهدفها العام[4].

---

(١) مصارع العشاق جـ١ / ١٠٨ .

(٢) مصارع العشاق جـ١ ص ١٢٦ ، ١٢٨ .

(٣) نفسه ص ١٣٩ .

(٤) المرجع نفسه ١٦٥ .

وفى الكتاب أخبار تؤكد أن الحب ظاهرة تتعدى الحياة البشرية إلى مافى الكون الفسيح من ذلك مارواه عن يحيى الصنعانى من خبر شجرتين التفتا على قبرين متلاصقين قد خرج من كلا القبرين ساق شجرة حتى إذا صارا على قامة التفا، أما القبران فهما قبر عروة وعفراء، وحين يسوق السراج هذا الخبر يتبعه بتعليق الناس على هذا المشهد الغريب : "تآلفا فى الحياة وفى الممات" ويكرر رواية الخبر ويختلف التعليق بما هو أكثر غرابة، إذ يسأل راوى الخبر محدثه : أى ضرب هو من الشجر ؟ فيقول المحدث : لاأدرى، ولقد سألت أهل القرية عنه فقالوا :

"لانعرف هذا الشجر ببلادنا" (١) .

وهو أمر منطقى فذاك الشجر الغريب يناسب ذلك الخبر العجيب ! وياترى هل نبتت تلك الشجرة من قلب العاشق ؟ هل تحول العاشق نفسه إلى شجرة ؟ هل تجاوب الشجر مع أشواق البشر ؟ إنها إيحاءات ممكنة لصورة شجرتين ملتفتين قد خرجتا من قبرى عاشقين، وقد يكون مثل هذا الخبر مقدمة مقبولة تفسر قول القائل :

تكـاد يدى تندى إذا مالمستهـا ... وينبتُ فى أطرافها الورق الخضـُر

وإذا كان قد تقرر فى الكتابات العربية حول عاطفة الحب أنه لايقع إلا بين متجانسين فإن هذا يغرى بتلمس التجانس فى عناصر الطبيعة المختلفة فإذا أمكن أن يظهر العشق على شجرة تمثل عروة وأخرى تمثل عفراء فلماذا لانتصور علاقة من هذا النوع بين الشجر لذاته .. وقد روى ابن الجوزى : خبر نخلة عاشقة من نخيل البصرة كانت غاية فى حسنها وطيب رُطبها، ثم فسدت حتى شيصت ، قال راوى الخبر : فدعا صاحبها شيخاً قديماً يعرف النخل، فنظر إليها وإلى ماحولها من النخل، فقال : هذه عاشقة لهذا الفحل الذى بالقرب منها فلقحت منه فعادت إلى أحسن ماكانت. (٢)

---

(١) مصارع العشاق جـ١ ص٢١٢ ، ٢٦٤ ، ٣١٧ .

(٢) راجع الحب فى التراث ص ٢٤ وذم الهوى ص ٢٩٩ .

" المنحىٰ الإنسانى فى نقد : سكينة بنت الحسين "
(٤٧ - ١١٧ هـ)

تمهيد : ألَّف جلال الدين السيوطى فى القرن التاسع الهجرى كتاباً حول أدب المرأة بعنوان : « أنس الجلساء فى أخبار الشواعر من النساء » عرض فيه لأربعين شاعرة : من « الخنساء » حتى « حمدونة » وليس فيهنَّ « سكينة بنت الحسين » علىٰ حضورها الدائم فى تاريخنا الأدبى والنقدى !

- ولعلَّ عذر الإمام السيوطى ، أنه لم يُذكر لها من الشعر ما يجعلها شاعرة ! لكننى أميلُ إلىٰ كونها شاعرة - من وجهة نظرى - لسببين : **الأول** : أننى « أكاد لا أرتاب فى أن الرواة قد أسقطوا لها شعرا ... فى غير الرثـاء ! وتلك شنشنة (١) نعرفها من أخزم ! إنهم قصروا المجال الفنى للمرأة علىٰ الرثاء ، وقلَّ أن اعترفوا بها شاعرة غير راثية ، فعلوا ذلك مع الخنساء ! وفعلوه مع ستين شاعرة أخرىٰ من شواعر العرب .. وفعلوه مع « الرباب » بنت امرىء القيس أم سكينة . قالوا : هى شاعرة ، ثم لم يحفظوا لنا من شعرها غير بضعة أبيات فى رثاء زوجها .. وبيتين آخرين رثته بهما أيضا حين سيقت مع ركب السبايا الهاشميات إلى قصر ابن زياد .. وما بمثل هذه الأبيات تعدُّ « الرَّباب » شاعرة كما وصفوها » (٢) .

السبب الآخر هو : أن المتتبِّع نقداتها للشعراء يظهر له بوضوح موهبتها الشعرية حيث كانت تُغيِّر لبعض فحول الشعراء « اللفظة » فى شعره ، ولربما غيَّرت الشطر الشعرى إلىٰ ما هو أجود ، كما فعلت مع « نُصيب » وسنعرض له .

---

١ - هكذا فى الأصل ، ولعل الصواب : شِنْشِنةٌ (راجع الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ ٤ / ٨٧ ط بيروت ١٩٦٥ م) و (نسب قريش ص ١١٨ ، ١٢٠)

٢- سكينة بنت الحسين د . بنت الشاطىء ص ١٧٣ .

- كما ألّف د . زكى مبارك كتاباً بعنوان : « حب ابن أبى ربيعة وشعره » وفيه عرض « لسكينة » عرضاً لا يتفق ووقارها ولا مع حقيقتها الإنسانية والتاريخية ! ولو قصرت حديثى على تفنيد ما ذهب إليه د . زكى مبارك فى « سكينة » لكفانى فى هذا الصدد ، ولكنى أرانى لا آتى بجديدٍ يُذكر بعدما قرأتُ للدكتورة : عائشة عبد الرحمن ردّها المقنع والممتع فى كتابها : « سكينة بنت الحسين » (١) .

- ولقد لمستُ من وراء سطور بنت الشاطىء دافعين : الأول : عاطفتها وحبّها لآل البيت ، ومرجع ذلك هو بيتُ أبيها ومنشـؤها المعروف .
والدافع الآخر : هو غَيْرة العفيفة المسلمة على مثلها من ذوات جنسها ، إذ رأتْ فى الذود عنها نوعًا من الجهاد والاحتساب !
وأيًّما كان فقد رأيت أن أنبه إلى حق « سكينة » على الإمام السيوطى ، كما رأيتُ أن أضيف إلى ما ذهبتْ إليه بنت الشاطىء جانباً آخر - يكمل هدفها - ألا وهو المنحى الإنسانى عند « سكينة » (٢) . وهو الهدف من وراء هذا البحث .

١- ص ١٦٠ وما بعدها .
٢- هي أمينة أو آمنة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - لُقبت بسكينة ، وهي من شريفات نساء عصرها ، قرشية هاشمية ، وهي من الأديبات العربيات المعدودات . وأمّها : « الرباب » بنت امرىء القيس الكلبي. وقد عرفت سكينة في عصرها بالثقافة الواسعة والجمال الباهر ، فضلا عن مكانتها الاجتماعية ، لهذا تهافت عليها الخاطبون ! ولكنّ المرجّح عندي : أنها تزوجت من ابن عمّها عبد الله بن الحسن بن علي وهو أبو عذرتها ، ثم من مصعب بن الزبير وكان مهرها من مصعب خمسمائة ألف درهم وأجهزها بمثله .. وقد شهدت مع مصعب حرب عبد الملك بن مروان ، فدخل عليها مصعب يوم قتل .. فأخذ سيفه فعلمت أنه لا يريد أن يرجع فصاحت من خلفه واحزناه عليك يامصعب ، فالتفت إليها - وقد كانت تخفي حُبّها له - فقال : أكلّ هذا لي في قلبك ؟ فقالت : إي والله وما كنت أخفي أكثر فقال : لو كنت أعلم أن هذا كله لي عندك لكانت لي ولك حال ! ثم خرج ولم يرجع !
=

- ١ -

كان المنحى الإنسانى عند سكينة صدىً لعواملَ كثيرة أهمها : نشأتها الدينية ، ومكانتها الاجتماعية - بين أهلها وعصرها - ثم ما وقع فيه أهلها من صراع دموى على مرأىً ومسمعٍ منها :

لقد وقفتْ سكينة منذ الطفولة ترقب أباها وهو فى دوّامة المصرع الدّرامىّ الذى كان بينه وبين بنى أمية ، تلك المعركة التى بدأت مرحلتها الأولى بين : « أبى سفيان بن حرب » والنبى محمد ﷺ ثم انتقلت إلى « معاوية بن أبى سفيان » و « الإمام على » صهر النبى ﷺ وابن عمه ، وها هى ذى تنتقل إلى « يـزيد بن معاوية » حفيد « أبى سفيان وزوجته هند » و « الحسين بن على » حفيد النبى ! :

عبدُ شمسٍ أضرمتْ لبنى هـــــــا ... شـم حربًا يشيبُ منها الوليـــــدُ
فابنُ حربٍ «للمصطفى» وابنُ «هنـد» ... «لعلى» و «للحســـين» «يزيـــد»

وما كان « الحسين » طامعاً فى أمرٍ من أمور الدنيا .. ولكن إذا انتهى الأمر إلى أن يصير « يزيد » أميرًا للمؤمنين ، فلن يبالى « الحسين » على أى جنبٍ كان فى اللهِ مصرعه ليدفع هذا الباطل بقلبه ولسانه ثم بسيفه إذا لم يكن من القتال بدٌّ !

وفى عام ٦٠ هـ اضطر الحسين - أمام إصرار والى المدينة على حسم الموقف - لأن يهاجر بأهله إلى مكة ، وقد دخلها ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان،

= فلما قتل خطبها « عبد الملك بن مروان » فرفضت بشدة قائلة : والله لا يتزوجنى بعده قاتله أبدا .. وقد توفيت - رضى الله عنها - بالمدينة لخمس خلون من ربيع الأول سنة ١١٧ هـ . (راجع العقد الفريد جـ ٤ / ٤٠٧ ، وفيات الأعيان جـ ٢ / ٣٩٤ وما بعده ، وأعلام النساء لعمر كحالة جـ ٢ / ٢١٧ ، وعيون الأخبار م١ جـ ٣ / ٢٥٨ ، والأغانى جـ ١٤ / ١٦٣ ، ١٦٨ - ١٧٠ ، والأنباء فى تاريخ الخلفاء لابن العمرانى ص ٥٥) وقد آثرت ذكر هذه المراجع كلّها لأن بها إشارات تؤكد زواجها من مصعب ، وهو دليل ترجيحى المذكور للزواج منه .

وفى السنة نفسها توجه إلى الكوفة بدعوة من أهل العراق له ، وكانوا قد بايعوه بالخلافة سنة ٥٩ هـ .

ونعود إلى سكينة وقد طافت بأنحاء مكة ، وأتيح لها أن ترقب النشاط الأدبىّ ، حيث كان عدد من شباب الأنصار ، وفتية قريش قد عمرتْ بهم أندية الشعر ، ومجالس الطرب والغناء ، وازدهرت فى تلك البيئة « الارستقراطية » مدرسة خاصة بالغزل !(١)

* * *

وقد عرفت « سكينة » منذ طفولتها بالمرح والبشاشة ، فكانت مبعث الأنس لأهلها ، ولأبيها بوجه خاص ، فقد كان الحسين - رضى الله عنه - يسكن إليها وإلى أمها « الرّباب » « بنت امرىء القيس » كلما ألمّت به الظروف العصيبة التى مرّت به !

وفى « سكينة » و « أمها » يقول الإمام الحسين - رضى الله عنه - مجيباً أخاه الحسن حين عاتبه على اهتمامه المفرط بهما :

لَعَمْرُك إننى لأحِبُّ داراً ... تحلُّ بها «سكينةُ» و «الربابُ»
أحبُّهما وأبذل جُلَّ مالى ... وليس لعاتبٍ عندى عتابُ
فلستُ لهم وإن غابوا مضيعاً ... حياتى أو يغيّبنى الترابُ (٢)

- فسكينة طالما كانت تؤنس أباها بكلماتها الرقيقة المهذّبة ، وابتساماتها المشرقة كلما ثقلت عليه الهموم ، بل عرفت بالدعابة والمرح تلوذُ بهما لتبدد الغيُوم التى

١- راجع تاريخ الطبرى جـ ٤ / ٢٨٦ والأنباء فى تاريخ الخلفاء ص ٥٣ وسكينة بنت الحسين ص ٣٢ - ٣٥
٢- مقاتل الطالبين ص ٩٠ والأغانى جـ ١٤ / ١٦٣ - ١٦٤ والمعارف لابن قتيبة ص ٩٣ ونسب قريش ص ٥٩

كانت تخيّم على آلِ البيت منذ مصرع جدّها الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ وما تلاه من أحداث أليمة ظلت تتوالى حتى عصفت بأبيها شهيدًا فى مذبحة كربلاء ، ومعه اثنان وسبعون من إخوته وبنيه وبنى أخيه وأبناء عمومته وأصحابه . (١)

- ٢ -

ويتبلور هذا المنحى الإنسانى عند « سكينة » بعد مذبحة كربلاء ، حين ترى رأس أبيها يطاف بها فى أحياء الكوفة على مرأى من السبايا الثواكل ، ولسان حالها يتساءل : أين الأشياع والأنصار ؟ أين الألوف الذين ألحّوا فى دعوة أبيها إلى الكوفة ليناضلوا معه فى سبيل الحق !

- لهذا تدفعها العاطفة الإنسانية ـ عاطفة الأبوة ـ لأن تقف فى ركب السبايا ناقدة ناقمة تشجُب ما حدث فتقول :

١ - لا تعذليـه فهَـمٌ قاطـعٌ طرَقَـهْ   فعَيْنُه بدمـوعٍ ذُرَّف غَدِقَـهْ

٢ - إن الحسين غداةَ ألطفِّ يرشُقه   رَيبُ المنـون فَمَا أن يُخطِىء الحدقَهْ

٣ - بكفّ شرّ عبـاد الله كلّهـم   نسل البغايـا ، وجيش المُرّق الفَسَقَه

٤ - يا أمة السوء هاتوا ما احتجاجكمُ   غـداً ، وجُلُّكم بالسّيف قد صفقَـه

٥ - الويلُ حلّ بكم إلا بمن لحِقَـه   صيرتمـوه لأرماح العِـدا درقَـهْ

كما يدفعها الحنين لأن تأمر عينيها بقولها :

٦ - ياعينُ فاحتفلى طول الحياة دماً   لا تبكِ وُلْـداً ولا أهـلاً ولا رُفُقَـهْ

٧ - لكن على ابن رسول الله فانسكبى   قيحاً ودمًا ، وفى إثْرِيهما العَلَقَـهْ (٢)

١- راجع تاريخ الطبرى جـ ٦ / ٢٦١ ، وقد ذكرت د . بنت الشاطىء أن عدد القتلى (ثمانية وسبعون) وأشارت فى المرجع إلى تاريخ الطبرى جـ ٦ / ٢٦١ وفى المرجع نفسه عدد القتلى (اثنان وسبعون) ! ولعل هذا الخطأ راجع إلى المطبعة .

٢- أمالى الزجاجى ص ١٦٨ وسكينة بنت الحسين د . بنت الشاطىء وعندها البيت الرابع هكذا : أَأُمةَ السوء هاتوا ، ما احتجاجكم ...الخ والشطر الثاني من البيت السابع (الأخير) هكذا : دمًا وقيحًا ...

- وهى لم ترث أحداً بعد أبيها إلا زوجها « مصعب بن الزبير » وهى لم تبك فيه إلا خصاله الإنسانية :

فإن تقتلوه تقتلوا الماجدَ الذى ... يرىٰ الموت إلا بالسيوف حراما!

وقبلك ما خاض « الحسين » منية ... إلىٰ القوم حتىٰ أوردوه جماما (١)

إن الإنسانية لتدفعها إلىٰ أن تسطّر فى أدبها رثاءً لزوجها الشجاع الذى « يرىٰ الموت إلا بالسيوف حراما » وهو فوق نلك ورع تقى ، شهد له بذلك كله - بعد مقتله - عدوّه الألدّ « عبد الملك بن مروان » حين (قال يوماً لجلسائه : من أشدّ الناس ؟ قالوا: أمير المؤمنين ، قال : اسلكوا غير هذا الطريق .. قالوا فمن ؟ قال : « مصعب » كان عنده عقيلتا قريش « سكينة بنت الحسين » و « عائشة بنت طلحة » ثم قال : « لو علم أن الماء ينقص مروءته ما ذاقه ») (٢) والفضل ما شهدت به الأعداء !

- ٣ -

علىٰ أن التاريخ الأدبى وإن أغفَلَها شاعرة ، فهو قد حَفِظ لها نقداتٍ هى أثقب من نقدات اللغويين والنحاة ، ومرجع نلك إلىٰ علو كعبها فى فن القول وإنسانيتها المرهفة تجاه الكلمة ، وصداها فى المشاعر الإنسانية ، وإن ما رواه المؤرخون ليؤكد أن الشعراء وغيرهم قد ألقوا إليها مقاليد الحكم الأدبى دون اعتراض !

فقد روىٰ الأصبهانى عن الحسن بن على من طريق رواية محمد بن سلام ، تؤازرها رواية عمر بن شبة .. قال هؤلاء : (٣) إجتمع فى ضيافة سكينة جرير والفرزدق

١- سكينة بنت الحسين وأمالي الزجاج ص ١٠٩

٢- الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٤ / ٣٣٣

٣- راجع الأغانى جـ ١٤ / ١٧٣ والموشح للمرزبانى ص ٢٦٣ وأعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام لعمر كحاله جـ ٢ / ٢٠٤ ، وتراجم النساء لابن عساكر تحقيق سكينة الشهابى ص ١٦٢ ، ١٦٩

وكَثير وجميل ونُصيب ، فمكثوا أياماً ثم أذنتْ لهم ، فدخلوا عليها ، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها ، وتسمع كلامهم ثم أخرجت وصيفة لها قد روت الأشعار والأحاديث فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال لها : هأنذا ، قالت : أنت القائل : (١)

هُمَـا دلّتاني من ثمانين قامـــةً ... كما انحطَّ باز أقتم الريش كاسرهْ
فلما استوتْ رجـلاى بالأرض قالتا ... أحيٌّ يُـرجَّى أم قتيـلٌ نحـاذره
فقلت: ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا ... وأقبلتُ فى أعجـاز ليـلٍ أبادره
فاصبحتُ فى القـوم القعـود(٢) وأصبحـت
مغلّقـة دونى عليها دســاكره !

قال نعم : أنا القائل :
قالت : فما دعاك إلىٰ إفشاء سرّها وسرّك ، هلاّ سترت عليك وعليها ؟ خذ هذه الألف والحق بأهلك ·

***

وليس يفوتنا ما فى نقد السيدة الجليلة من هدفٍ إنسانىّ يتفق وتعاليم الإسلام إنها دعوة كريمة إلىٰ ترك الفحش ، وعدم المجاهرة بما يخدش حياء الأنثىٰ ، بل عدم المجاهرة بكل ما يقترفه العبد من أخطاء قد سترها الله عليه · وفى الحديث عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كلُّ أمتى مُعافىٰ إلا المجاهرون ، وان من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : يافلان عملتُ البارحةَ كذا وكذا ، وقد بات يستره ربّه ويصبح يكشِف ستر اللهِ عنه » متفق عليه · (٣)

- ٤ -

ثم دخلت الجارية على مولاتها ، وخرجت برسالتها فقالت : أيكم جرير ؟

١- ديوان الفرزدق جـ ١ / ٢١٢ ط دار صادر بيروت ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م
٢- المراد بالقوم القعود : النساء وفى الديوان / القوم الجلوس
٣- رياض الصالحين للإمام النووى ص ١٠٧ باب ستر عورات المسلمين

قال : مانذا . قالت : أنت القائل : (١)

طرقتكِ صـــائدةُ القلــوبِ وليــس ذا	وقـت الزيــارة فارجـعى بســــلامِ
تُجـرى الســواك علىٰ أغـــرّ كأنـه	بَـرَدٌ تحـدّر من متـونِ غمــــامِ
لو كان عهــدك كالـذى حدّثتِنـــا	لوصلتِ ذاك وكان غيرَ لمــــامِ
إنى أواصـــل من أردت وصـــاله	بحبـــال لا صـلف ولا لـــــوّامِ

قال نعم :

قالت : هلاّ أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ .. أنت عفيف وفيك ضعف . خذ هذه الألف والحق بأهلك . (٢)

وما كان للشاعر أن يلحق بأهله إلا وقد اقتنع بأسرار نقدها : « أنت عفيف وفيك ضعف » فهذا أشف تنويه إلىٰ جمال العفة مقرونة بالقوة وليس بالضعف . أما قولها : هلاّ أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها : فإنه قد اشتمل دخائل تلك العصر الذى كان الخضوع فيه للحبيبة غاية الرجولة ! كما كان العشق فيه شيئاً عاما تساوىٰ فيه رجل الدين ورجل السياسة إلىٰ جانب الشعراء !

فرجل الدين : كعبد الله بن عباس كان يصغى إلىٰ إمام الغزلين « عمر بن أبى ربيعة » فى مجلس فتواه ويروى شعره (٣) وكان عبيد الله بن عبد الله بن مسعود وعروة ابن أذينة وعبد الرحمن القس ، وسعيد بن المسيب من الفقهاء الظرفاء الذين لهم فى شعر الغزل باع طويل (٤)

١- ديوان جرير جـ ١ / ٥٥١
٢- الأغاني جـ ١٤ / ١٧٣ وأعلام النساء جـ ٢ / ٢٠٤ - ٢٠٥ والموشح ص ٢٥٢
٣- الكامل للمبرد جـ ٢ / ١٦٨
٤- راجع في هذا الصدد مجلة الرسالة عدد ٦٦٥ في ١٣٦٥/٤/٢٨ هـ - ١٩٤٦/٤/١ م ص ٣٥٠ وما بعدها بقلم الشيخ « على الطنطاوى »

وأما رجل السياسة : فهو كعبد الملك بن مروان حين وفدت عليه « بثينة » معشوقة « جميل » فسألها : ماالذى أعجب كثير منك حتى أرّج بك الأخبار ؟ وماالذى رجاه منك ؟ قالت : « الذى رجت منك الأمة حين ولّتك » (١)

وكأني بها تقول لقد رآني بعينيه ولم يرني بعينيك !

وهذا الموقف ينطوى على شيئين : الأول : موقف أعلى رأس فى العصر إذ رأى انتشار الشعر الغزلى وقد عطر الأسمار والأخبار ، فهو المستروح الوحيد - حينئذ - الآخر : جواب « بثينة » لما فيه من حذق وتمييز بين نظرة العاشق والفنان ونظرة عابر الطريق ، فرؤية العاشق الفنان إنما تتجاوز المنظور إلى المخائل والتخييل ، فيرى مالا يراه الناظرون !

وهكذا يلتقى فقهاء تلك الأمة وحاكمها .. مع الشعراء تحت لواء الحب !

* * *

ونعود إلى مجلس « سكينة » وقد عرفنا طبيعة المجتمع الأموى حينئذ ، - فما أنشدها شاعر غير شعر الغزل - نعود لنستمع ثانية إلى قولها لجرير :
« هلاّ أخذت بيدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها » ؟

فسكينة قد اعتمدت فى نقدها على الحسّ الاجتماعى ، وإن الإنسانية لتدفعها - فضلاً عن العفة - إلى وجوب المعاملة بالمثل ، ولا سيما فى مجال العواطف، فلا تقابل العاطفة الصادقة بعاطفة تنِدُها !!

- ٥ -

- وعادت الجارية بعد أن دخلت إلى مولاتها فقالت : أيكم كُثّير ؟ قال :

١- راجع الامتاع والمؤانسة جـ ٢ / ١٦٨ .

مانذا ، قالت : أنت القائل : (١)

وأعجبني ياعــزّ منـكِ خــلائقُ   كـرامٌ إذا عُـدّ الخـلائقُ أربــع !
دُنُـوُّكِ حتىٰ تُذكري العاشق الهوىٰ   وبُعْـدك أسـبابَ الهـوىٰ حين يطمـعُ
وأنكِ لا يـدرىَ غـريم مطـلتِه   أيشـتدُّ إن لاقـاك أم يتضـرّع ؟
وأنكِ إن واصلتِ أعلمتِ بالـذى   لديك فلم يُوجـد لكِ الدَّهـر مطمعُ (٢)

قال نعم : قالت : فسوءة لك : جعلتها ذا لونين تعطى من يستحق المنع ، وتمنع من يستحق الإحسان والعطية (٣)

وفى الموشح للمرزبانى قالت : ما جعلتها بخيلة تعرف بالبخل ولا سخيّة تعرف بالسخاء » (٤)

وفى تراجم النساء لابن عساكر قالت : « أغزلتَ وأحسنَت » (٥)

وفى الأغانى : « ملحتَ وشكلت » (٦)

١- ديوان كثير ص ٣٣ والموشح للمرزبانى ص ٢٦٧

٢- تراجم النساء لابن عساكر ص ١٦٩ والأبيات مذكورة أيضا بهذا المرجع ص ١٦٢ وفيها اختلاف بالبيت الثالث فهو هكذا :

لزمت لنا بالبخل منك طريقـة   فليتك ذو لونين يعـطى ويمنـع

والبيت الرابع غير مذكور بـ ص ١٦٢

وقد ذكر الأصبهانى ثلاثة أبيات وفيها اختلاف في البيت الثانى والثالث وهما فى الأغاني هكذا :

دُنُوُّك حتىٰ يدفع الجاهل الصبا   ودفعك أسباب المنىٰ حين يطمع
فو الله ما يـدرى كريم مماطـل   أينساك إذ باعدت أو يتصـدع

وهى موافقة لما جاء فى ديوان الشاعر ص ٣٣

٣- ابن عساكر ص ١٦٢

٤- الموشح للمرزبانى ص ٢٦٧

٥- ابن عساكر ص ١٦٩

٦- الأغانى جـ ١٤ / ١٧٤

وأرى أن اختلاف الروايات فى نقد « سكينة » لأبيات كثير إنما يرجع لتعدد الرواة والمؤرخين ، وهذه الكثرة المروية تَعْنى أن لنقد سكينة أصلاً يؤكد نسبته إليها.

وأياً كانت الروايه: فقد أُعجبتْ سكينة بأبيات « كثير » في وصف صاحبته « لما لمَحَتْ فيها من دقة التعبير عن عِزة الأنثى وطبيعة حواء » (١)

كما أُعجبتْ سكينة بشعر « كثير »: « لأنه وصف صاحبته بما توصف به المرأة التى تستديم الحب وتستبقى الود ، وتعرف كيف الحرص على الرجل ومن أين يستثار ، تدنو ـ كما قال ـ تُريه من نفسها دَلالاً وألوانا من الفنون يحيل إليه معها أنها مستسلمة له ، فيتحفّز للغواية ويتلمظ لاقتناصها ثم لا يقدر عليها ولا ينال منها ، لأنها تكون قد ارتدت إلى نزاهة الحب وعفافه ، فتصدّه عنها ، وتدفعه وتؤنسه ، وتبدد مناه » (٢)

فالأبيات ـ إذن ـ تصوير واقعى للعلاقة الإنسانية التى تكون بين المتحابين ، فالنساء : يتمنعن دائمًا وهنّ الراغبات ! ولكن ماذا يكون إذا ما استبدّ الهوى ؟ هل تكون المحبوبة ذا لونين كما تمنّى كثير ! « فليتك ذو لونين يعطى ويمنع » كلا ! بل يجب الوضوح والعفة ، لا التلوّن الذى يرث العقد النفسية أو يئد العاطفة من مهدها !

- ٦ -

ثم دخلت الجارية على مولاتها ، وخرجت فقالت : أيكم نُصيب ؟ قال هأنذا (٣)

فقالت أنت القائل :

ولولا أن يُقالَ صَبَا نُصيب ... لقلتُ بنفسِيَ النَشأ الصِغار
بنفسى كلّ مهضومٍ حشاها ... إذا ظُلمتْ فليس لها انتصار

قال نعم :

فقالت : ربّيْتَنَا صغاراً ، ومدحْتَنا كبارا . خذ هذه الألف والحق بأهلك .

١- بنت الشاطىء ص ١٧٨
٢- اتجاهات النقد الأدبى العربى ص ١٦٥
٣- فى الأصل ها أنا الأغانى جـ ١٤/١٧٤

وفى رواية أخرى قالت له : (١) « أغزلتَ وأحسنت وكرُمت إلا أنك صبوت إلى الصغار وتركت الناهضات بأحمالها » !

ولا تخفى هذه اللفتة الإنسانية : « صبوت إلى الصّغار وتركت الناهضات بأحمالها » فهى تلفت أنظار الرجال إلى الثمرة الناضجة ، التى أينعت وحان قطافها وإلا فسدتْ ولربما أفسدتْ ! ، إنها أولى بالقصد من ثمرةٍ لم تنضج بعد ! وفى هذا مالا يخفى من صيانة النفس الإنسانية من الانحـــراف !!

كما أعجبت سكينة بموقفه تجاه المرأة حيث انتصر لها وعدّها مظلومة تحتاج إلى من يأخذ بيدهـا فى الحيـــاة ·

- ٧ -

« ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : ياجميل ، مولاتى تقرئك السلام وتقول لك : والله مازلتُ مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك : (٢)

ألا ليتَ شـعرى هـل أبيتنَّ ليـــــلةً ... بوادي القرى ، إنِّى إذن لسعيـــدُ (٣)
لكلِّ حـــديثٍ بينهن بشاشــــــة ... وكـلُّ قتيـلٍ عندهـن شـــــهيدُ !
يقولون : جـاهد ياجـميل بغـــزوةٍ ... وأى جـــهاد غـــيرهن أريـــد (٤)
وأفضـل أيـامى وأفضـل مشـــهدى ... إذا هـيج بى يـــوماً وهـنّ قعـــود

فقال جميل : أنا قلته ، قالت : أغزلتَ وكُرمت وعففت · ادخل · فلما دخلتُ سلّمتُ · فقالت لي سكينة : أنت الذى جعلت قتيلنا شهيداً ، وحديثنا بشاشة وأفضل أيامك يوم تتوبُ فيه عنّا وتدافع · ولم تتعدّ ذلك إلى قبيح ! خذ هذه الألف درهم وأبسط لنا العـــذر : أنت أشـعرهم »

* * *

---

١ - ابن عساكر ص ٦٨ - ٦٩

٢- الأغانى جـ ١٧٤/١٤ وقد اقتصر على ذكر البيتين : الأول والثانى ، كما اقتصر على قول سكينة : « جعلت حديثنا بشاشه ، وقتلانا شهداء ، خذ هذه الألف والحق بأهلك»

٣- ديوان جميل بثينة ص ٣٩ - ٤١ والأبيات المذكورة قطوف من داليته الشهيرة

٤- ابن عساكر ص١٦٩ ، وفيه زيادة الأبيات ، وتعليق « سكينة » كاملا ·

ونلاحظ - بدايةً - أنها كرّمت جميلا بعدة أمور هي : الاشتياق لرؤيته ، والسلام عليه ، والدخول عليها ، وإعطاؤه الألف مع الاعتذار بقلة ذاتِ اليد حينئذ ، وأخيراً تفضيله على الشعراء ، « أنت أشعرهم » وهو وسام شرفٍ لا يعدله بين الشعراء وسام !

وبالطبع لن يأتى هذا التكريم من فراغ أو مجاملة ، فلقد أوضحتْ حيثياتِ حُكمها ، وهى فيها تنطلق من منظور إنسانى كريم ذى شقين :

الأول: أن الشاعر قد تأثر فى فنّه بروح الإسلام الذى أدرك المسلمين - وهم بشر - فوضع بين أيديهم ما يعوضهم عن المعاناة والصبر دون ارتكاب المعصية ، فأرشد المسلم إلى أنه قد يرتقى بحبه إلى درجة الشهداء ! نعم : فقد روى ابن عباس عن النبى ﷺ قوله : « من عشق وكتم وعفّ وصبر ، فمات مات شهيدا » (١) فاندفع المسلمون بذلك إلى العفة والعذريةِ فى حبهم ، ووجدوا - فى إسلامهم - ما يُوفّقون فيه بين الزهدِ ومطالبَ العاطفة ، وفيه - دون شك - من جهادِ النفس مالا يخفى !

الشق الآخر : هو الإشادة بخلق إنسانى كريم يتمثل فى الشهامة العربية بالدفاع عن المرأة والذود عنها ، وهو خلق أمّره الإسلام وجعل الموت فى سبيلها استشهاداً أيضا! ففى الحديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل - أحد العشرة المشهود لهم بالجنة - قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » (٢) فجميل إنما أحسن فى نظر سكينة : « لأنه جعل الحب جهاداً ، يرجع عنه المحب

١- هو حديث صحيح ، ومقبول عند فقهاء الظاهرية والحنابلة ، وقد ذكر ابن الجوزى لهذا الحديث فى مخطوطة رقم (١٢٩٦ باريس) اثنى عشر اسنادا (راجع مصارع العشاق لابن السراج جـ ١ / ٧ ط ١ مصر) و (الحياة العاطفية د . غنيمي هلال ص ٣٥ ط القاهرة .

٢- رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح رياض الصالحين ص ٤٣١ باب بيان جماعة من الشهداء

المجاهد بالغنيمة أو بالشهادة ، والغنيمة : ما يلقى من بشاشة الحديث ، وحلاوة المقال ، والشهادة : النهاية الحتمية للضنى والسّهد والعذاب والمحب يلتذ كل أولئك، ولا يحاول أن يصرفها عن نفسه ، وكلما أوغل فيها أوغل فى ملذات الوجدان ، حتى يلقى مصرعه مطمئناً ، مستبشرا كاطمئنان الشهيد »(١)

وهكذا مزج جميل بين « العقيدة والحب » وهو منحى إنسانى لا يخفى !

***

ولا يفوتنَا إعطاؤها للشعراء ، والتفاوت فى هذا العطاء !

أما إعطاؤها: ففيه تشجيع لهذا الشعر المعبّر عن تلك العاطفة الإنسانية التى ذاعت حينئذ ، فعمّت طبقات المجتمع - كما مرّ - وغدتْ حديث كل بيت ! وسكينة بعطائها إنما تشجّع على قول يُهذّب تلك العاطفة ، وينشر الفضيلة فى مجتمعها ! وكما قيل قديمًا : إن اللُّهـا تفتـح اللَّهـا » !

والرسول ﷺ إنما سمع الشعر وأعطى عليه ، وكان فى مقدمته مثل هذه الأبيات التى سمعتها سكينة وأعطت عليها !

وأما التفاوتَ فى إعطائها : ففيه تكريم لمن زادت عِفّتُه ، وسَمَتْ فكرتُه وكان صادق التعبير عن عاطفته ... ، وفى ذلك كلّه مالا يخفى من بعدٍ إنسانىّ تبثُّه فى نقدها .

***

وإذا كانت « سكينة » تحثُّ على العفة فى ممارسة الحب أو التعبير عنه ، فهى قد ألزمتْ نفسها بذلك وهى تخاطب الرجال من خلف ستار بواسطة جارية ، كانت تصافح عنها الضيوف ، وتدفـع للشـعراء الجـوائـز !

- ٨ -

وفى مجلسٍ سكينىٍّ آخر رواه الأصبهانى عن ابن أبى الأزهر عن حماد عن أبى عبد الله الزبيرى قال : اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية كثير وراوية جميل ، وراوية نصيب وراوية الأحوص ، فافتخر كل رجل منهم بصاحبه وقال : صاحبى أشعر .

١- اتجاهات النقد الأدبى العربى د . محمد السعدى فرهود ص ١٦٥ - ١٦٦

« فحكموا سكينة بنت الحسين بن علي - عليهما السلام - لما يعرفونه من عقلها وبصرها بالشعر ، فخرجوا يتهادون حتى استأذنوا عليها ، فأذنت لهم ، فذكروا لها الذي كان من أمرهم .. » « قال إسحاق في خبره فلم تُثن على أحدٍ منهم في ذلك اليوم ، ولم تقدّمه .. إلا جميلا » فإنه خالف هذه الرواية . فقالت لراوية جميل :
أليس صاحبك الذي يقول : (١)

فياليتني أعمى أصمُّ تقودُني بثينةُ لايخفى عليَّ كلامُها !

قال نعم :
قالت : « رحم الله صاحبك إن كان صادقا ، وكان جميلا كاسمه » (٢)

وفي رواية أخرى (٣) « قالت الجارية : تقول لك سيدتي : أرضيتَ من الدنيا وعَيْشِها ونعيمها أن تكون أعمى أصمّ إلا أنه لا يخفى عليك كلامُ بثينة ؟ ! قال نعم : فدخلت فأخبرت مولاتها بما سمعت من لفظه ، فلم تلبث إلا يسيراً حتى خرجت الجارية ، ومعها كيس فيه ألفا درهم ومنديل فيه أصناف ، فقالت : تقول لك سيدتي : اقطع لك هذه الثياب ، وانفق هذه الدراهم ، فإذا نفدت فأْتِنا فإن لك عندنا المواساة »

وظاهر الروايتين أنهما ليستا في مجلس واحد ، وأعتقد أنه المجلس المذكور آنفا وأن سكينة قد راجعته في أكثر من قصيدة إعجاباً بشعره ، ولهذا عدّته أشعرهم وزادته في العطاء !

وعلى كل حال : فقد أدركت الناقدة - بغريزة الأنثى وطبيعة الإنسان - أن المحبَّ دائما يرقب المحبوب يتبعه حيث يميل ، يُنصت لحديثه ، ويصدقه وإن كذب ! ويوافقه وإن ظلم ! يتعمّد القعودَ بقربه والتباطؤ في الشئ إذ أبعده عنه ... وقد أوجز جميل

١- ديوان جميل ص ٦١ والموشح ص ٣٥١ ووفيات الأعيان جـ ٣ / ٢٧٠
٢- الأغاني جـ ١٤ / ١٧٤ - ١٧٥ والموشح للمرزباني ص ٢٦٧
٣- تراجم النساء لابن عساكر ص ١٦٤

كلّ هذا حينما تمنّى العمى والصم على أن تقوده « بثينة » فيطولُ اللقاء .. وهذا كلّه إنما يُستحسن من المحب إن كان صادقا عفيفا :

« رحم الله صاحبك إن كان صادقا ، وكان جميلاً كاسمه » !

هكذا تحثُّ « سكينة » على الفضيلة وتشجع عليها بأساليب مختلفة ! من منطلق منحىً إنساني رفيع .

* * *

وقد روى صاحب الأغاني قولها لراوية نصيب : (١)

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإن أمتْ ... فوَاحزنا مَن ذا يَهيمُ بها بَعْدي !

« فما أرى له همةً إلا فيمن يتعشّقها بعده ! كأنه يتمنى لها من يتعشقها بعده ! قبحّ الله صاحبك ، وقبحْ شعره ، ألا قال :

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإن أمتْ ... فلا صلُحتْ دَعْدُ لذي خلةٍ بعدي !

إنها دعوة كريمة ـ من ناقدة جليلة ـ للوفاء في الحب حتى بعد الممات !

وإن الوفاء في هذه الحالة لأجلُّ وأحسن منه في الحياة مع رجاء اللقاء ! وأرى في نقدها للبيت ملمحًا إنسانيا آخر : فالحب إنما يقوم على الذاتية والأنانية ، الأمر الذي لا يسوّغ لمحبٍ أن ينتقي بديلاً آخر يحلّ محلّه !

* * *

وإن مما يؤكد بصرَ « سكينة » في نقد هذا البيت : هو أن ما عابته فيه على « نصيب » قد عابه عليه آخرون معاصرون له كعمر بن أبي ربيعة ـ إمام شعراء الغزل في عصره ـ كما عابه شعراء آخرون بحضرة « عبد الملك بن مروان » وكان عبد الملك

١- جـ ١٤ / ١٧٤ وأعلام النساء جـ ٢ / ٢٠٣

ناقــــدا (١)

ومما ورد من نقد عبد الملك لهذا البيت قوله : « والله لقد أساء قائل هذا البيت » ثم طلب إلى جلسائه أن يضعوا بديـلا لشطره الآخر على غـرار ما صنعت « سـكينة » مع نصيب (٢)

وقد أردت أن أنبه إلى موهبة « سكينة » الشعرية التى أسعفتها فى مثل هذا الموقف ، وهو ما يرجّح ما نعبتُ إليه فى بداية حديثى عن سكينة .

- ٩ -

وسمعت « سكينة » قول الأحوص عن عاشقين تراسلا وتواصلا ليلا حتى إذا لاح الصباح تفرّقــا :

باتـا بأنعـم ليلـةٍ وألذّهـــــا   حتى إذا وضـح الصــباح تفرّقـــــا

فقالت : وددت لو قال : « تعانقـا » بدل « تفرّقـا » (٣)

وهذا النوع من النقد كان قوامه تقدير المشاعر الإنسانية : « فسكينة قدرت - ولم تنكر صدق الشاعر فى عبارته عن واقعة تجربته ، لكنها ودّت أن تثمر حركة العاشقين من التراسل والتواصل والتلاقى والتدانى ثمرة إيجابية .. هى العناق . لا أن ترتدّ الحركة إلى صدريهما سهام انفصال وفراق . ولكل من الشاعر والناقدة وجهته ، ووراء الوجهتين تقف الحاسة الأدبية ، تمدّ كلاً بالتقدير . (٤)

- ١٠ -

وركبت « سكينة » ذات ليلة فى جواريها فمرّت بعروة بن أذينة (٥) فقالت : يا أبا

١- انظر الكامل للمبرد جـ ١ / ٣٣٣
٢- الموشح للمرزباني ص ٢٩٩ وعيون الأخبار جـ ١٠ م ٤ ص ١٤٦ - ١٤٧
٣- الأغاني جـ ١٤ / ١٧٥
٤- اتجاهات النقد الأدبي د . السعدى فرهود ص ١١٠
٥- هو الإمام يحيى بن مالك الليثى الكنانى من الفقهاء والمحدّثين ، كان عالما ناسكا ، روى عن عبد الله بن عمر كما روى عنه الامام مالك في الموطأ وروى عنه عبيد الله بن عمر وهو من فحول الشعراء بالمدينة عاصر أكثر الأمويين

عامر أنت تزعم أنك لم تعشق قط ! أنت القائل :

إذا وجدتُ أُوار الحبِّ في كبدي ... أقبلتُ نحو سقاءِ الماءِ أبتَردُ
هبْني بَرَدتُ ببردِ الماءِ ظاهرَهُ ... فمن لنارٍ على الأحشاءِ تتقدُ ؟

فقال لها : نعم

فقالت : وأنت القائل :

قالتْ وأبثثتُها سرّي فبحت به ... قد كنتَ عندي تحبُّ الستر فاستتر
ألستَ تبصر مَن حولي ؟ فقلتُ لها ... غطى هواكِ وما ألقى على بصري ؟

فقال نعم ،

فالتفتت إلى جوار كن حولها وقالت :

«كلّ من ترى حولي من جواري أحرار إن كان خرج هذا الكلام من قلبٍ سليمٍ قط» (١)

لقد أدركتْ سكينة - بمشاعرها الإنسانية - ما في شعر عروة من نبض قلبٍ جريحٍ قد براه الضنى وهو يدّعي الكتمان !

فالمراد بقولها : «إن كان هذا الشعر خرج من قلب سليم» أي سلم من المعاناة ، وادعى قوله الشعر على مذهب الشعراء أو قاله تقليدا !

كلّا ففي شعر عروة مكابدة تنمُّ عن حبٍ صادق !

وسكينة تدعوه لأن يكون واضحاً في عواطفه ، وكأنها بذلك تتألم لحاله ! « لأن من اغتمس في بحر الهوى نمّتْ عليه شواهد الضنى ، فأما أهل الدعاوى الباطلة الذين ليست أجسامهم ، ولا ألوانهم بحائلة ، ولا عقولهم بذاهلة ، فهم عند

تُوفي حوالي ١٣٠ هـ (راجع شعر عروة بن أذينة د . يحيى جبور ص ١٣ وما بعدها)

١- وفيات الأعيان جـ ٢ / ٣٩٤ وأعلام النساء جـ ٢ / ٢٠٩

نوى الفراسة يكذبون ، وعند نوى الظرف لصحتهم يوبّخون »(١)

وهذا الأدب العالي والذوق الرفيع من مثل سكينة لا يستغرب ، وفي الوقت نفسه أرى الدافع من وراء كتمان عروة لحبه : هو مكانته الجليلة بين الفقهاء !

« فالفقيه العاشق أقرب إلى التصون غالباً من الأديب العاشق ، لأن له من فقهه الديني وإحساسه بمكانته في المجتمع ما يسمو به عن الريبة والظن (٢)

* * *

ـ وعلى جانب هذه الوقفات النقدية والأدبية نرى جانباً آخر لصورة أهل العصر : حيث العبيد والجواري ، وأسلوب التخاطب من نحو :

« سيدتي ومولاتي .. » وهو ما يظهر الفارق الاجتماعي ـ وهو أحد الجوانب الإنسانية ـ إلا أن سكينة ـ وهي فرد ـ لم تستطع أن تقدّم فيه شيئا إلا أن تلوّح بالحريــة، كما في قولها لعروة :

« كل من ترى حولي من جواري أحرار ... »

* * *

ونراها في كثير من النقدات : تمزج العقيدةَ بالحبِّ ـ والشئُ لا يستغرب من معدنه ـ هذه اللفتة الإنسانية رأيناها مثلاً في نقد الفرزدق وجميل .

وكأن الحــبَّ في نظرهــا لا يقـوم بغيـر ديـن يحفظـه ويحميـه !

* ولا دُنيا لمن لم يُحي دينَا *

-١١-

ونقرأ في الأغاني خبراً آخر له دلالته الإنسانية : حدّث المدائني أن سكينة كانت ذات ليلة تسير ، فسمعت حاديا يحدوَ في الليل يقول :

* لولا ثلاثٌ هنّ عيشُ الدّهر *

فقالت لقائد قطارها : الحق بنا هذا الرجل حتى نسمعَ منه ما هذه الثلاث .. ثم قالت

١- الموشّى للوشّاء ص ٧٧

٢- الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير د . رجب البيومي ص ١٥٧

لغلام لها : « سرْ أنت حتى تسمع عنه » فسار الغلام سريعًا ثم عاد إلى مولاته ، فقال لها : سمعته يقول :

* الماء والنوم ، وأم عمرو *

فقالت : قبّحه الله ، أتعبنى منذ الليلة ! »(١)

فسكينة : « إنما أنكرت أن يخلط بين حاجات الجسم المادية وحاجة القلب والوجدان . وأن تستوى عنده أم عمرو ، والماء ، والنوم ، بل تتأخر عنهما »(٢)

والتمييز بين حاجة الجسم والقلب إنما يعود إلى الذوق الإنسانىّ المتحضر الذى يراعي حق المرأة ويقدّر مشاعرها !

- ١٢ -

وقريب من هذا موقف سكينة من «كثير عزة» حين أنشدها قصيدته التى أولها :

أهاجك برقٌ آخرَ الليل واصبُ ... تضمّنه «فَرْش الجبا» «فالمساربُ»

تألّق واحْمومى وخَيّم بالرُّبى ... أحمُّ الذُّرى ذو هيدبٍ متراكبُ

إذا زعزعته الريحُ أرزمَ جانبٌ ... بلا خلفٍ منه وأومضَ جانبُ

وهبتُ لسُعدى ماءَه ونباتَه ... كما كلُّ ذى وُدٍّ لمن ودَّ واهبُ

لتَروى به سُعدى ويَروى صديقها ... ويُغدق أعداد لها ومشارب

فقالت : أتهب لها غيثاً عاماً جعلك الله والناس فيه أسوة ؟ فقال : يابنتَ رسول الله ﷺ وصفتُ غيثاً فأحسنته وأمطرته وأنبتّه وأكملته ، ثم وهبته لها . فقالت : فهلا وهبت لها دنانير ودراهم !(٣)

وربما يُفهم لأول وهلة من قول سكينة : أنها أرادت التعبير عن الحب بالجانب المادى (الدنانير والدراهم) كلا ! وإنما عابت عليه - كما عابت على الأعرابى السابق - عدم تقديره لمشاعر الأنثى ، فإعطاؤه - هنا - هو إعطاء من لا يملك شيئاً

١- الأغانى جـ ١٤ / ١٧٢

٢- د . بنت الشاطىء / ١٨١

٣- الموشح للمرزبانى تحقيق البجاوى ص ٢٤٦ ، وأعلام النساء جـ ٢ / ٢٠٦ - ٢٠٧

تساوت فيه الخلائق ، ولا يملك هو قسمته بينها ، ولا ردّه عنها !

إذن : فهو تعبير فاتر - من وجهة نظري -

وانطلاقاً من هذا التعبير الفاتر الذى لا يناسب عاطفة الحب الصادق كان نقدها لقوله:

وماروضةٌ بالحَزن طيبة الثـرىٰ   يمجُّ الندىٰ جثجاثها وعرارُها

بأطيبَ من أردان عـزّة موهنـا   وقد أُوقدت بالمندل الرطب نارُها

« ويحك ! وهل علىٰ الأرض زنجية منتنة الإبطين توقد بالمندل الرطب نارها إلا طاب ريحها ! ألا قلت كما قال عمك امرؤ القيس :

ألم تريانى كلما جئت طارقـا   وجـدتُ بها طيبـا وإن لم تطيّب (١)

وقد عرض د . فرهود لنقد « سكينة » لهذا البيت وعدّه من أمثلة النقد القائم علىٰ الموازنة والمقارنة : فأنت ترىٰ « سكينة » بنت الحسين تعتمد علىٰ خبرتها الأنثوية فى تفضيل امرىء القيس الذى وجد الطيب طبيعة فى صاحبته فلا تحتاج إلىٰ التطيب أما كثير فقد عِيب قوله ، لأنه اجتلب لصاحبته طيبا تتطيب به . وقال أبو هلال العسكرى : إن قول كثير من المعانى التى لا تبلغ مبلغ الإحسان لأن كل من تجمّر بالعود طابت رائحته ، فضلا عن أن العود الرطب ليس بمختار للبخور وإنما يصلح للمضغ وللسواك (٢)

- ولعلّي ألتمس المقصودَ إذن بطِيبِ الرائحة التى أرادتها سكينة - فى محبوبة نصيب أو غيرها - أنها الرائحة الذاتية ، وما تعنيه من جمال طبيعى تكون عليه الأنثىٰ ، ولعلها سبقت - بتلك اللفتة الإنسانية - إلىٰ نبذ المساحيق المصطنعة التى تحاول بها المرأة تغيير ما فطرها الله عليه !

- ونعود إلىٰ ما سبقت الإشارة إليه من أن « سكينة » قد شهدت من المآسى والأرزاء

١- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى جـ ٥ / ٣٧٣

٢- اتجاهات النقد الأدبى ص ١٧٣.

ما طَفَحَتْ بها الكأسُ مرارةً وشجن منذ تفتحت عيناها على الحياة ! (فقد قُتل جدُّها علي وأبوها وزوجها مصعب ، فتيتمت صغيرة ، وترملت كبيرة ، وصارت إلى عداء مع الأسرة الأموية الحاكمة) ورغم ذلك كله ظلّت كما كانت مبعث أنس لمن تبقى من أهلها ولمن حولها بما فُطرت عليه من ظرف السجايا ولطف الدعابة !

- وإن الإنسانية لتدفعها لأن تجتّر آلامَها لتقبلَ على الناس بوجهٍ ضحوك ونفس متفتحة للحياة ، مستهينةً بأمر الدنيا التي لم تَعُد تساوي - في نظرها - دمعة تُسكب ، ولا هي جديرة بأن يؤسف عليها !

— ونرى أن ما فطرت عليه من أنس وظرف وما شَهِدتْه طوال حياتها من مآسٍ وأرزاء - كان له أثر كبير في تكوين شخصيتها . هذا بالإضافة إلى تأسّيْها الواضح واعتزازها بجدها ﷺ وهو رسول الإنسانية جمعاء !

فهذه الأسباب مجتمعةً كانت من وراء منحاها الإنساني، والذي تبلور في مواقفها من أحداث مجتمعها ، كما تبلور في دورها الرائد في نقد الشعراء وتشجيعهم بالمال وبالكلمة ، وكأن روح أبيها وجدِّها قد انضافتا إلى روحها فجمعتْ بين سخاء الكفّ ، وثروة العلم وحبِّ الإنسانية بكل معانيها ! !

- ١٤ -

ولعلّنا نتساءل : لماذا اقتصرت نقداتُ سكينة على شعر الحب ؟

وماذا يعني إذن ؟

إن الشريفة الهاشمية الحسناء قد عاشت في مجتمع شاع فيه الحديث عن الحب - كما مرّ - وكان شيئاً عاماً التقى فيه عالم الدين ورجل السياسة مع الشعراء ، وأقبل الجميع على شعر الغزل يتغنون به ، ولمَّا اختلف الشعراءُ ورواتُهم على أيِّهم أشعر ؟ وقصدوا « سكينة » للفصل بينهم - ما أنشدها شاعرٌ غيرَ شعر الغزل !

فكأنّ نَقَداتها ـ حينئذ ـ كانت موجهةً إلىٰ ذوق العصر كله ممثلاً في تلك النخبة من الشــــعراء .

والحب ـ بمعناه الواسع ـ هو المظهر الحضارى لمعانى الإنسانية كلّها ! بل يتعدّىٰ إلىٰ ما يمسُّ الوجودَ الإنسانيَّ فى صميمه !

ولعل إعراضها عن شعر المدح ـ علىٰ كثرته ـ كان إعراضاً عمّا يشوبُ معظمَه من التملق والنفاق .. وتلك لفتة إنسانية أخرىٰ .

من أجل ذلك : (لم نرها ردتّ لمن عرضتّ لنقد شعرهم بيتاً من مدائحه أو ناقشته فيه ، بل كان اهتمامُها بما قالوه فى الحب ! وكأنها كانت ترىٰ فيه مالا ترىٰ فى المدح من نبض القلب بل تعدُّه المقياس الدقيق لامتحان أصالة الشاعرية ، وصدق المعاناة) (١)

***

- ولا يتوقف منحاها الإنسانى عند حد التشجيع علىٰ هذا الشعر ـ بنقده والعطاء عليه ـ بل يمتدُّ للتغنّى فيه وتشجيع ذلك بالعطاء ، وكأنها أرادت أن تلبّى حاجة الفتّيين من أبناء المدينة ، وليس عليها فى تلك التسليات البريئة من جناح ، وهى علىٰ تلك المكانة من رجاحة العقل ؛ لهذا لم ير أحد من أهلها فى ذلك بأساً ولم يعبها من المؤرّخين عائب !!

***

- ونلاحظ فيما مرَّ من نقدات سكينة أنها كانت جزئية لا تتعدىٰ البيت أو البيتين إلا أن قيمة هذه النقدات الجزئية إنما تكمُن فى غوصها أعماق النفس الإنسانية فكانت دافعاً إلىٰ السمو الفكريّ ، والرقيِّ العاطفيِّ والسلوكيِّ ...

حقاً :

لعَمَـــرُك إنـــى لأحـــبُّ داراً ... تكـونُ بها « سـكينةُ » و « الرَّبــابُ »

١- راجع د . بنت الشاطىء / ١٨٤

النفسية اليهودية كما صوّرها القرآن الكريم

تمهيـد :

العاقل من يأخذ من أحداث الأيام عبرة ، وأصدق من يحدثك عنها هو القرآن الكريم ، فهو الكتاب الذى « لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »[1] وهو الذى تكفل الحكيم الحميد بحفظه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[2]

ولقد عنى القرآن الكريم بتاريخ اليهود، ولم يكن ذكر العقوبات التى حلت بطواغيت بنى إسرائيل أمراً يراد به التسلية ، وإنما كان للعبرة والعظة « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إنّ فى ذلك لآيات لكل صبار شكور »[3] .

والمتأمل فى كتاب الله تعالى يجد حشداً هائلا من الآيات تقف عند اليهود لتصور خصالهم أو لتعيبَ عليهم تصرفاتهم أو لتحذرنا من خداعهم، أو لتعلن سخط الله عليهم ولعنته لهم. إلى آخر الآيات التى عنيت بأمرهم، وصدق الله العظيم « إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون »[4] .

وهذا ما يدفع كل باحث غيور على دينه لأن يتأمل فى كتاب الله ، وأن ينظر كيف أبدع نظم وتصوير آياته ، فلعل الباحث يصل - بعون من ربه - إلى شىء من أسرار التنزيل الحكيم ، ولعل الباحث فى حاجة لكى يعايش تلك المعانى والأحداث - على كثرتها - لأن يعرض لطرف من أخبارهم :

فقد رزق الخليل إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بإسحاق من سارة ،

---

(1) فصلت / ٤٢ (2) الحجر / ٩

(3) إبراهيم / ٥ (4) النمل / ٧٦

وبإسماعيل من هاجر التى تزوجها ،وكان لإسحاق هذا ابن يسمى يعقوب سمّاه الله تعالى بإسرائيل : «أى عبدالله ، أو بركة على عباد الله المخلصين،وكان من بين أولاده الإثناعشر ولد يسمى يهوذا ومن اسمه أخذت كلمة يهوذ،وفى عهد يوسف الذى بيع من إخوته الإسرائليين فى مصر،ثم صار فيها وزير الخزانة والتموين: حدثت مجاعة بفلسطين، فكان أهله يترددون على مصر من أجل التموين ثم تمّ التعارف بينهم وبينه وقال «. . . وائتونى بأهلكم أجمعين»[1] فحضروا وتناسلوا جيلاً بعد جيل حتى تغلبت مصر على حكم الهكسوس الرعاة المحتلين وطردهم وتولى الفراعنة، فاتّهموا الإسرائيليين بأنهم كانوا أعواناً لأعدائهم الهكسوس فعذبوهم واتخذوهم عبيداً فى بيوتهم وأجراء فى أرضهم وسخروهم فى بناء المعابد والمقابر، ولما زاد التنكيل بهم أرسل الله موسى عليه الصلاة والسلام لينقذهم وانتهى الأمر بينه وبين فرعون بخروجه مع قومه هاربين للنجاة ومعهم الميرة والذهب والفضة التى استعاروها من المصريين ، وجاوزوا البحر إلى سيناء ، ولكنهم بعد النجاة من البحر ثاروا على موسى وأخيه هارون من أجل ما أصابهم فيها من مجاعة ، وقد أنعم الله عليهم بدعاء نبيهم . .

ثم أدخلوا فلسطين (أريحا) فى عهد "يوشع بن نون" بعـــد موت "موسى" وأنزلوا العذاب بأهلها الشرعيين الكنعانيين العرب وقسّموا الأرض على أسباط إسرائيل، كما حارب بنو يهوذا اليبوسيين وأخذوا ملكهم وعين عليهم طالوت المسمى (شاول) ملكا فاختار طالوت داود قائداً للجيش ضـــد الكنعانيين الذين استولوا على تابوتهم فانتصروا عليهم وقتل داود جالوت الفلسطينى واستردّ التابوت واستمر حكم داود أربعين عاما بعد زوال حكم العرب من سنة ١٠١٠ ق . م واختار القدس (أورشليم) عاصمة له، ثم اختار مكانا لبناء معبد الرب وقام ببنائه ابنه سليمان الذى مكث هو الآخر أربعين عاماً وأقام الهيكل على جبل (الثريا) بالقدس سنة ١٠١٢ ق م ، أى بعد خروج الإسرائليين من مصر بـ ٤٨٠ سنة . .

(١) يوسف : ٩٣ .

واشترط الله على سليمان أن يبقى له ولبنى إسرائيل الهيكل إن لم يفسدوا فإن أفسدوا ضربهم وشردهم، وقد كان.

ثم غزا الإسكندر المقدونى اليونانى بلاد الفرس وأسقطها، فاستسلم أمامه اليهود سنة ٣٣٢ ق م، فأحسن إليهم.

وفى عام ٧٠ م حاصر (تيطس الرومانى) أورشليم القدس وأنزل باليهود فيها من المجاعات ماصيرهم أشباحا وكان الرومان يشقون بطونهم بحثا عن الذهب فيها إذ سرت إشاعة بأنهم ابتلعوه، وقد تمّ تخريب المدينة تماما سنة ١٣٥ م وحرثت أرضها وطرد أهلها وحطم هيكلها، وتحققت نبوءة المسيح بخرابها، وكل ذلك ثابت فى أسفار التوراة.[1]

* * *

والمتأمِّل فى القرآن الكريم يجد نحواً من ثلاث وسبعين آية[2] من سورة البقرة تتحدث - متوالية - عن اليهود، وكأنها حديث إجمالى عن اليهودية ثم أخذت الآيات بعد ذلك تفصِّل ما أجملت - فى مقامه ومكانه المناسِبَين - مرةً على لسان موسى - عليه الصلاة والسلام - وثانيةً على لسان اليهود وثالثةً تخاطبهم ورابعةً تحكى عنهم وخامسةً تقصّ علينا طرفاً من تاريخهم وأحداثهم، ليكون بمثابة التذكر لنا والتثبيت للنبى محمد صلى الله عليه وسلم، وهى على كثرتها منزهة عن التكرار، ولا يخلق معناها، ولا ينتهى.

- وأولُ ما يوقفنا من خطاب لليهود، هو قوله سبحانه:[3]

---

(١) راجع «المسجد الأقصى ومعركة النصر والفتح» عبداللطيف مشتهرى ص: ٨٩.

(٢) البقرة، من آية ٤٠ - ١٢٣.

(٣) البقرة، آية ٤٠ - ٤٣.

« يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمتُ عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون » .

يذكر الله اليهود بما أنعم على آبائهم ـ سبب وجودهم ـ من نعم كإنجائهم من بطش فرعون ومن الغرق ومن العفو بعد عبادتهم للعجل ، ثم ما أنعم به على اليهود المعاصرين لرسالة النبى الخاتم ،إذ أدركوا زمنه وقد بشروا به فى التوراة والإنجيل ، والواجب عقلا وإنسانيا شكر هذه النعم ، ومن شكرها : طاعة واهبها وهو الله عز وجل ، وقد أخذ عليهم عهداً بطاعته واتباع محمـــد وقرآنه ، فلما نقضوا العهدَ وكفروا ، هدّدهم الله بقوله « وإياى فارهبون » .

ثم حذّرهم من تحمل الإثم فقال : « ولا تكونوا أول كافر به» فتتحملوا وزر من يخلفكم على مر العصور ، « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » فتُخفوا أو تُحرّفوا ما عندكم فى التوراة من صفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ والثمن هو حب الدنيا ، أو هـــو الرياسة التى كانت لهم فى قومهم ، خافوا عليها لو اتبعوا محمـدا .

والآيات بهذا التوجيه والإقناع تكشف من قريب جانباً من جوانبهم النفسية : فهى تعرِّض (بنفسٍ لئيمة لا تعرف الوفاء) !

فمن باب مقابلة الإحسان بالإحسان كانوا هم أولى الناس باتباع محمد لمعرفتهم به وبصفاته من قبل مجيئه: «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإنَّ فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون »(1) .

وهم أولى الناس باتباعه كما أخذوه من عهد مع ربهم ، ولما يحملونه من أسفار ، ولكن ـ للأسف ـ كانوا أول كافر به ، بدلاً من أن يكونوا أول مؤمنٍ به ، وهم إنما كفروا به بغياً وحسداً وحرصًا على الرياسة .

---

(1) البقرة ١٤٦

ولما كان عائقهم عن الإيمان بمحمد هـو حبّ الدنيا، أي الشره أو حب الرياسة: أمرهم الله بالصبر - أي بالصوم - لأنه يكسر الشهوة، وبالصلاة لأنها تورث الخشوع والتواضع [1] فقال سبحانه: «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين» [2] ولا شك أنهما أعظم شيء يصلح النفوس المريضة.

وتظل الآيات على هذا المنوال الإصلاحي، بالاقناع تارة وبالتهديد والتعريض أخرى، وكأنها تكبح جماح نفس لئيمة، خالط دمها حب الدنيا كقوله سبحانه:

«وإياي فارهبون» «وإياي فاتقون» «لا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون» [3]

ولما أراد الله التوبة عليهم أمرهم بدخول بيت المقدس، وعلّمهم كيفية الاستغفار بأن يدخلوا بابها منحنين قائلين (حطة) أي مسألتنا أو أمرنا أن تحط عنا خطايانا، ووعدهم سبحانه بالمغفرة إن أطاعوا، فما كان منهم إلا أن بدّلوا كلام الله.

ويصوّر القرآن الكريم هذا (اللؤمَ والشرَه) بقوله سبحانه:

«وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم، وسنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون» [4] فهم قد بدلوا قول الله فقالوا مكان حطة حنطة أو قالوا (حبة في شعرة، والمعنى نسألك حباً في زكائب من شعر) [5].

وقد ثاروا على موسى لما ابتلاهم الله بالقحط، ثم أنعم الله عليهم - بدعاء رسولهم - فرزقهم الله المن والسلوى ونهاهم عن الفساد «كلو واشربو من

---

(1) الجلالين ط الشمرلي ص ٨.
(2) البقرة: ٤٥.
(3) البقرة: ٤٠ - ٤٢.
(4) البقرة: ٥٨ - ٥٩.
(5) الجلالين: ص ٩.

رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين »(١)

ولكنهم سرعان ما أفسدوا وتمردوا على موسى وشريعته ، فقالوا كما حكى القرآن « لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها »(٢)

- وقولهم لن نصبر على طعام واحد ، مع أنهما طعامان (المن والسلوى) فقد أرادوا بالطعام الواحد مالا يتبدل أو يتعدد . ويتعجب موسى من طلبهم وينكر عليهم ذلك « قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » !

بيد أنه اضطر - لإلحاحهم الشديد عليه - لأن يقول : « اهبطوا مصرا فإن لكم ماسألتم » أى انحدروا إليه من التيه (وبلاد التيه مابين المقدس إلى قنسرين) فهناك الذى سألتم ، لا فى التيه .

- هكذا كان تمردهم على موسى، وهذا ما استوجب غضب الله عليهم، كما صور القرآن « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله » (لقد جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم. فهم فيها كما يكون فى القبة من ضربت عليه أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه . فاليهود صاغرون أذلاء ، أهل مسكنة وفقر إما على الحقيقة وأما لتصاغرهم وتفاقرهم خيفة أن تضاعف عليهم الجزية)(١)

- واليهودى داهية؛ لايتورع عن الجريمة مادامت تحقق غاية : لقد كانت أولى تجاربهم فى الحياة ، أن قالوا فى أخيهم « اقتلوا يوسف »(٢) « ثم زينوا لأبيهم أن يرسله معهم فى الغداة يرتع ويلعب ، فأرسله على موثق منهم أن

(١) الكشاف : ج ١ ، ١٥ .
(٢) يوسف : ٩ .
(٣) البقرة : ٦٠ .
(٤) البقرة : ٦١ .

يكونوا له حافظين ، فخانوا موثقهم وألقوه في غيابة الجب ، « وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » ، « وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل »[1] ، فكانت تلك أول مؤامرة قتل وغدر في التاريخ ، وتحت ظلال النبوة الصالحة حمل إصرها أبناء يعقوب (الكبار) للتخلص من أخيهم (الغلام) انسياقا مع أحقر الشهوات وأخس الغرائز والرغبات ، « وواضح أن هؤلاء الأئمة المتآمرين هم الأسباط العشرة أجداد اليهود الذين ذهب بهم الخيال المريض إلى أنهم ورثة الأنبياء (وشعب الله المختار) وأصحاب الدنيا من سائر أقطارها »[2] !

ـ ومن مثل ذلك المعين الأسود يقص علينا القرآن خبر رجل موسر من اليهود يدعى (عاميل) قتله بنو عمه ليرثوه ، وطرحوه على باب مدينة ، ثم جاءوا يطالبون بديته ، فأمرهم الله بذبح بقـــرة ، ثم بضرب القتيل ببعضها ليحيا ـ بإذن الله ـ فيخبرهم عن قتلته . . . ووقف اليهود أمام هذا الأمر موقف الإنكار والتعجب ، وكأنهم يشككون في البعث ، فأكثروا من الأسئلة التي تدور حول ماهية البقرة المطلوبة وصفاتها ، ويجيب عليهم موسى ، فيعودون للسؤال عن لونها ثم يتعللون بتشابه البقر عليهم ، إلى أن جيء بها « فذبحوها وما كادوا يفعلون »[3] .

إما لغلاء ثمنها ، أو خشية من ألم الفضيحة أمام الناس ، أو غير ذلك ، ويصور المصطفى صلى الله عليه وسلم ماهم عليه من تشدق بقوله : « لو ذبحوا أي بقرة لأجزأتهم ، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم » .

---

(١) يوسف ، من آية ١٦ – ١٨

(٢) منبر الإسلام (عدد ٣ السنة ٢٧ ص ٢١٣) الأستاذ / أحمد وافي .

(٣) البقرة / ٧١ .

وليتهم راجعوا أنفسهم أو اتعظوا بما حدث، أو عرفوا الخشية من ربهم، كلا وألف كلا ، بل صلبت قلوبهم عن قبول الحق بعد تلك الآية الحسية التي تقشعر منها الأبدان ، واستمرأوا المعصية فأبعدتهم عن الخوف من الرحمن .

- وقد أبدع القرآن تشبيه و تصوير ما هم عليه من قسوة وعدم خشية منه سبحانه فقال : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإنّ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون »[1] .

- والعجيب المدهش أنك لتراهم صورة مكررة تعيد نفسها في كل عصر وزمان، فهم اليوم على اختلاف منازلهم ومشاربهم وبيئاتهم: صورة مطابقة لما وصفهم به القرآن من صفات وأخلاق ، لم تزدهم الأيام إلا رسوخا .

ولعل مما يدل على أنهم وحوش الطباع قساة القلوب - كما صورهم القرآن - ما سمعناه - في أواخر القرن الماضي - عن :

« محاولات اليهود إصطياد بعض الأفراد وذبحهم واستصفاء دمائهم، لكي يخلطوا بها فطائر عيد الفصح الذي يبدأ احتفالهم به مدة أسبوع إبتداء من ١٤ / ٤ / من كل عام ... فقد اختفى قس مسيحي اسمه (الأب توما) كان يعيش في دمشق، وبتتبع خطواته والتدقيق في البحث ظهر أنه كان في زيارة بعض أصحابه من اليهود ، وما لبثوا أن هجموا عليه وأحكموا وثاقه وذبحوه وأسالوا دمه في إناء كبير، وعبأوا الدم في زجاجات ضبطت واحدة منها وهي تهرب إلى القدس، وقدم الجناة إلى المحاكمة وحكم على بعضهم بالإعدام، ولكن وفودا من كبار أغنياء اليهود من انجلترا وفرنسا وغيرها ، قدموا بالأموال إلى القاهرة ، ودفعوا ثمن فرمان بالعفو عن الجناة »[2] .

---

(١) البقرة ٧٤

(٢) منبر الإسلام (العدد ٧ السنة ٣٠ ص ١٥٦) الأستاذ محمد صبيح .

ونقرأ فى التوراة – التى بين أيديهم – عن حرب مدين : « أن موسى جرد حملة من ١٢ ألف مقاتل لغزو أرض مدين – ولم تكن مدين أساءت لليهود ولا خاصمتهم – باغت اليهود أهل مدين على غرة وقتلوا كل ذكر وملوك مدين قتلوهم فوق قتلاهم ... وسبى بنو إسرائيل نساء مدين وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم ... تقول التوراة فى سفر العدد (٣١) إن موسى سخط للرب ، وأصدر لهم الأوامر التالية :

١ – أن يقتلوا كل ذكر من الأطفال .

٢ – أن يقتلوا كل امرأة عرفت بمضاجعة ذكر .

٣ – إبقاء الفتيات اللاتى لم يضاجعن رجلا .. الخ هذه الصورة الدموية الرهيبة التى رسمها اليهود لنبى الله موسى الكليم كتبوها بعد وفاته بألف سنة تقريباً لتعزز وتبرر المذابح التى كانوا يقومون بها كلما ظفروا بقوم من الكنعانيين أو غيرهم من سكان فلسطين ... وحاشا أن يكون موسى – هذا النبى الكريم العظيم – على هذه الصورة الرهيبة » [1]

كيدهم للإسلام والمسلمين :

إن الظاهرة الملازمة للنفسية اليهودية فى كل أطوار التاريخ أنهم حيث يكونون يكون الشر والفساد والفتن والمؤامرات ، ولعلنا نلمس الحكمة الجليلة من تقديم اليهود على المشركين فى قوله سبحانه « لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » [2]

– لقد لقى المسلمون منهم بعد الهجرة إلى المدينة عداوة هى أشد وأنكى من عداوة قريش لهم إذ لم يتركوا وسيلة من وسائل الدس والوقيعة والتآمر

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٧

(٢) المائدة ٨٢

والفتنة إلا استخدموها بغيا وضغنا وحسدا من عند أنفسهم . وروى ابن هشام في السيرة (٢ - ٥٦٧) أن كعب بن أسد وابن صلوبا وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس من طغاة اليهود ومتجبريهم قال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر فأتوه فقالوا يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم وإنا إن اتبعناك اتبعتك يهود ولم يخالفونا وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة أفنحاكمهم إليك[1] فتقضي لنا عليهم ونؤمن بك ونصدقك ؟ فأبى ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله فيهم « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » [2]

وهم لم يكتفوا بمحاولة زحزحة الرسول عن دينه بل حاولوا تفريق الجماعة الإسلامية من حوله فقد اغتاظوا لما رأوا من جمعهم على الإسلام فأمروا من يجلس بينهم ليذكرهم بيوم (بعاث) وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وحينئذ تكلم القوم وتفاخروا وتنازعوا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : أن شئتم رددناها الآن جذعة فغضب الفريقان جميعا وقالوا : قد فعلنا، موعدكم الظاهرة وتنادوا السلاح السلاح .. وبلغ ذلك رسول الله فخرج فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال يا معشر الأنصار الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به قلوبكم ، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا

---

(١) منبر الإسلام عدد ٧ : السنة ٠٣ دار رمضان عبد التواب .

(٢) المائدة آية : ٥٠

وعانق بعضهم بعضا (١)

ونزل قوله تعالى : «قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون »(٢)

ـ لقد كانوا يحقدون على محمد صلى الله عليه وسلم أن صار رسولا من غير جنسهم وأن شريعته تكشف خفاياهم ولهذا شرقت حلوقهم ببعثته ووجلت قلوبهم بهجرته ، فمكروا ثم قدروا فحاربوا دعوته وناصبوها كل العداء . وكثيرًا ما سجل القرآن ذلك الحقد الدفين ، يقول سبحانه «ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق »(٣)

ولما أشار عليهم ابن أبي وأتباعه المنافقون أن يثبتوا في ديارهم ولا يخرجوا وإن احتاجوا إلى عون حربي كانوا معهم وطمع اليهود بهذا الوعد البراق وأبو الجلاء ونقضوا ما عاهدوا الرسول عليه من الدفاع عن المدينة، فحاصرهم رسول الله وخذلهم المنافقون . ويصور القرآن الكريم ذلك فيقول «ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً، وأن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون »(٤)

ـ ويصور القرآن الكريم ذلك الجنس اليهودى بماديته وأوهامه وشهواته الرخيصة التى يعمل لها ليل نهار لما يعلمون من سوء العاقبة فى الآخرة ولهذا فهم حريصون على الدنيا فيقول :

« ولتجدونهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم

---

(١) راجع منبر الإسلام عدد ٧ السنة ٣ ص ٧٦ د/ رمضان عبدالتواب

(٢) آل عمران ٦٩ (٣) البقرة ١٠٩

(٤) الحشر ١١

لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون »(1)

ـ ولقد أبدع القرآن فى تصوير نفسيتهم حين عبر (بأفعل التفضيل) مضافا إلى عموم الناس ثم أفرد (الذين كفروا) بالذكر مع أنهم داخلون فى قوله (أحرص الناس) وذلك من باب عطف الخاص على العام ولم تتضمنه من معنى التهكم والتوبيخ لأن الكافر بالله لا يعرف إلا دنياه فما بالك بمن معه كتاب من الله ويعرف الآخرة ومع ذلك هو أحرص ممن ليس معه كتاب ؟

ـ وهم لا يطلبون أى حياة بل حياة مخصوصة متطاولة وهذا ما نفهمه من تنكير لفظ (حياة) فى الآية وقوله تعالى : (يود أحـــدهم) : بيان لزيادة حرصهم بطريق الاستئناف .

وكان ابن الخطاب يجلس اليهم فقالوا له « ياعمر قد أحببناك وأنا لطمع فيك فقال: والله ما أجيئكم لحبكم ولا أسألكم لأنى شاك فى دينى وإنما أدخل عليكم لازداد بصيرة فى أمر محمـد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأرى آثاره فى كتابكم ثم سألهم عن (جبريل) فقالوا ذاك عدونا يطلع محمدا على أسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب وأن ميكائيل يجىء بالخصب والسلام فقال لهم : لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير ومن كان عدوًا لأحدهما كان عدوًا للآخر ومن كان عدواً لهما كان عدوا لله ثم رجع فوجد جبريل قد سبقه بالوحى »(2) « من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين »(3)

ـ وحاول يهود النضير قتل الرسول كما حاول يهود خيبر سمه فى الطعام وفى كل مرة يحفظه الله ، وما زال هذا الغدر السافل يؤثر فى الرسول طوال

(1) البقرة : ٩٦
(2) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٢٢٦
(3) البقرة الآية : ٩٧

حياته حتى لقى الله بأثره ليجمع الله له بين ثواب الشهادة والرسالة روى ابن السنى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما زالت أكلة خيبر تعاودنى كل عام حتى كان هذا أوان قطع ابهرى » وإذا كان هؤلاء المجرمون مدينين لرسول الله منهم من كذبوا ومن قتلوا ، كما قال الله تعالى « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون »[1] « فإن فى اعناقهم إثم جرم فظيع فى حق رسولنا وهو القيام بسمه كما هموا من قبل بقتله »[2] .

ـ وقد يتظاهر اليهود بالاستسلام لتشكيك المسلمين فى دينهم وهـــذا ما صوره القرآن يوم تواصى أحبار قرى (عرينه) وكانوا اثنا عشر حبرا من اليهود وقال بعضهم لبعض : ادخلوا فى دين محمد أول النهار وارجعوا آخر النهار إلى دينكم وقولوا رجعنا إلى علمائنا فحدثونا أن محمداً كاذب وذلك ليفتنوا[3] المسلمين عن دينهم ولكن الله كشف سوءاتهم وغدرهم بقوله « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون »[4] .

ـ وإشعال الفتن والتحريض ضـد المسلمين هى الفكرة التى تختمر فى نفوسهم دائما وهذا ما يدفعهم إلى الكذب على الله وإيثارهم الوثنية على الإسلام فقد سأل زعماء قريش اليهود باعتبارهم أهل كتاب وعلم قائلين : أفديننا خير أم دين محمد فقالت اليهود : بل دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتبعه فأنزل الله يلعنهم « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت

---

(١) البقرة ٨٧ .

(٢) المسجد الأقصى ومعركة النصر ١٨ .

(٣) المرجع السابق ٢٠ .

(٤) آل عمران ٧٢ .

والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا »[1] .

– وما أروع القرآن وهو يصور ما جبلوا عليه من (ضعف وجبن وتخاذل أمام طائفة المؤمنين) « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »[2] .

– فهذا أدق تصوير لخفايا نفوسهم إذ يصفهم بالرعدة الدائمة من المؤمنين بحيث لا يستطيعون الحرب المواجهة وإنما من وراء الجدر أو فى جوف المستعمرات والحصون ولعلها إشارة إلى اعتمادهم دائماً على غيرهم ممن يمدونهم بالمال والسلاح والخبراء والتشجيع وهذا كما حكى القرآن يوم ألح عليهم موسى ليدخلوا الأرض المقدسة فقالوا : « إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » وبعد إلحاح الرجلين المؤمنين عليهم ليدخلوا كان قرارهم الأخير : « يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون »[3] .

* * *

افتراءات يرد عنها القرآن الكريم :

العجيب أن اليهود بعد تلك المواقف - التى تبعدهم عن الإيمان حتى برسولهم موسى - يدعون كذبا وافتراء على الله أنهم (شعب الله المختار) وأن (الدار الآخرة لهم من دون الناس) وأنهم (أبناء الله وأحباؤه) ومع ذلك يتطاولون

---

(1) النساء : ٥١ .

(2) الحشر : ١٣ ، ١٤ .

(3) المائدة : ٢٢ ، ٢٤ .

على مقام الألوهية فيقولون (إن الله فقير ونحن أغنياء) ويقولون (يد الله مغلولة) وغير ذلك كثير . . !

ولكن القرآن يرد عليهم هذا الكذب والافتراء وهو كامر يتتبع معهم حوارا مقنعا وفي الوقت نفسه تعريضا وتهكما لاذعا فضلا عن التهديد . ولا ينفع الطرق في حديد بارد ، فيقول سبحانه :

« قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين[1] » !

فالذي يدعي إيثار شريعته والتمسك بها ومدافعة غيرها يلزمه نصرة من يقوم عليها ويدعو إلى سبيلها فإن وقع خلاف ذلك منه فانقض على دعاتها وبطش بهم واستباح قتلهم وسفك دمائهم فهو إذن عـــدو مجاهر وخصم لا يهادن . . قتلوا المسمى : اشعياء بن آموص من أظهر أنبياء التوراة وأبعدهم اشتهارا باستطلاع الغيب والتلويح بما سيكون »[2] .

وقوله تعالى : (إن كنتم مؤمنين) تشكيكٌ في إيمانهم وقدحٌ في صحة دعواهم فضلا عن الاستفهام الإنكاري في الآية .

ويقول سبحانه « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين »[3] .

ويقول سبحانه : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[4] .

---

(١) البقرة : ٩١ .

(٢) على هامش الحوار بين القرآن واليهود / حسني يوسف الأطير ص ٨٥

(٣) البقرة : ٩٤، ٩٥ .

(٤) البقرة : ١١١

ويقول سبحانه « قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق »(١).

والآيات - بهذا التدرج الفنى - تهدم النعرة العنصرية عند اليهود وتجعلهم فى مؤخرة البشرية حلقا وتكشف أكذوبة (شعب الله المختار) يقول الأستاذ أنور الجندى بعنوان (فساد نظرية الجنس السامى واللغة السامية) :

(ما تزال خطة تزييف تاريخ العرب والمسلمين لحساب الصهيونية التلمودية من الأعمال الضخمة التى قال بها الاستشراق اليهودى وتكاد تكون فكرة السامية أخطر هذه الشبهات ، وهى عبارة أو مصطلح لم يرد مطلقا فى كتابات العرب والمسلمين . . وفى ظل تقسيم وهمى للأجناس البشرية مستمدا من أسماء أبناء آدم أبى البشر « سام وحام ويافث » ، فى ظل تقسيم مستحدث ظهر فى أوربا أبان استعلاء نزعة العنصرية الأوربية التى قسمت العالم إلى ساميين وآريين لتضع العرب والمسلمين فى قائمة موازية للجنس الآرى صانع الحضارة الذى وصف بكل أوصاف العبقرية والاستعلاء على البشر وخضوع الأجناس الأخرى إليه . . غير أن المحاولة التى حاولت أن تضع عبارة « السامى » والسامية بديلا للإبراهيمية الحنيفية وللعرب والعربية كانت محاولة ماكرة خطيرة استهدفت حجب أمجاد التاريخ القديم عن العرب، ونسبتها إلى اسم قديم لا يعرف التاريخ الصحيح له مصدراً واضحا . .

وفكرة السامية تدور حول القول بأن هناك أصلا واحداً مشتركا للعرب واليهود ومحاولة إعطاء العربية أثراً ومكانة غير صحيحة فى حضارات الشرق القديم . . . ولغياب الفكر الإسلامى فى هذه المرحلة فقد اتسع نطاق الفكرة الإسرائيلية وسيطرت على مناهج الجامعات ودراسات الثقافة جميعاً . .

ففى مقدمة كتاب إسرائيل ولفنسون (الذى يشرف الآن على البعوث الإسرائيلية فى أفريقيا، يقول الدكتور طه حسين : « ليس من شك أن المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيراً قويا فى الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل

(١) المائدة : ١٨

الحجاز ، ويعلن طه حسين اغتباطه إلى أن إسرائيل ولفنسون : « قد وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل » ولكن هل هذه هي الحقيقة؟ إن د/ فؤاد حسنين علي أكبر المتخصصين في مصر في اللغة العبرية وتاريخ اليهود يقول : إن هذا البحث حلقة من حلقات كتب الدعاية الصهيونية التي كانت الشعبة الثقافية للمؤتمر الصهيوني بإشراف « مارتن بوبر » تدعـــو إلى نشرها . . ويصل د/ فؤاد حسنين إلى القول بأن الحاقدين على العرب والإسلام والناسبين التراث العربي إلى اليونان واليهود يضللون أنفسهم وغيرهم والعكس هو الصحيح والعرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود والتاريخ اليهودي يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم في فلسطين أو فزعا من اضطهاد اليونان والرومان . . . ثم يقول الأستاذ أنور الجندي : هـــذا هو سر الحقد الشديد الذي تبيته الصهيونية العالمية للعرب واللغة العربية فتعمل على محو ذلك التاريخ الطويل ورفع اسم العرب عنه ونسبته إلى رمز مضلل هو السامية . . .

والهدف هو طمس الرابطة بين الإسلام الذي جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ق ٦ م ودعوة إبراهيم التي بدأت منـــذ عام ١٧٥٠ ق . م ذلك أن إقامة إبراهيم ابنه إسماعيل في قلب الجزيرة العربية في مكة وإسماعيل هو جد العرب وجد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبناء الكعبة ، ودعوة الله سبحانه وتعالى النبي إلى اتباع ملة إبراهيم « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا »(١) هذا مما يريد اليهود طمسه وتزييفه . .

وقد عمد اليهود إلى طمس حقيقة وعد الله (٢) تبارك وتعالى لإبراهيم فجعلوه قاصراً على إسحاق ولذلك تجاهلوا ابنه الأكبر اسماعيل وحاولوا إخراجه

---

(١) النحل : ١٢٣ .

(٢) هو الوعد الإلهي بأرض المعاد التي تكون وطناً أبديا لهذا الشعب الذي يخرج نسله من سارة .

وإخراج أبنائه من حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه ، وابتكروا الأكذوبة التى تقول إن بنى إسرائيل وحدهم (شعب الله المختار) .

يقول الأستاذ السحار : « حرم اليهود أبناء إسماعيل حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه ، وأرادوا أن يسلبوا إسماعيل كل فضل فزعموا أن الذبيح هو إسحاق مع أن التقاليد تقضى بتقديم الابن الأكبر قربانا لله »

وقد أضاف الأستاذ السحار : أن الحفريات أكدت أن حضارة بابل وحضارة العموريين والكنعانيين وسيناء وثمود كلها عربية ، وقد اكتشفت هذه الحضارات وعرف أنها حضارات عربية خالصة ولكن بعض العلماء أرادوا أن ينسبوها إلى جد أعلى حتى لا يلقوا أضواء على مجد أقوام نافسوا بنى إسرائيل منذ أيام خليل الله إبراهيم. فأطلق العالم سلو تيسر اسم (السامية) نسبة إلى سام بن نوح وصادف ذلك هوى فى نفوس الآخرين . . وتبعهم الكتاب العرب)[1] .

– ولما كانت اليهود تعتقد أنها الشعب المختار وأن الرسول لا يكون إلا من بنى إسرائيل إذن فوله بنى إسرائيل لا شأن له بغير اليهود ، ولهذا لما جاء محمد صلى الله عليه وسلم وهو ليس من اليهود شككوا فى دعوته وكانت القضية تدور حول صورة الإله عند النبى الجديد !

– فمن الذى يتصور أنه من أجل صدقة أو زكاة يجوز لإنسان – مهما انحط به طبعه – أن يصف الله بالفقر ، ويصور القرآن الكريم تعديهم هذا على مقام الألوهية فيقول :

« لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء »[2] يقول ابن عباس : لما نزل قوله تعالى « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » قالت اليهود : يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض[3]؟

(١) راجع سلسلة «فى دائرة الضوء» عدد١ (فساد نظرية الجنس السامى واللغة السامية) للأستاذ أنور الجندى من ص ١١ : ٢٨ بتصرف

(٢) آل عمران : ١٨ (٣) ابن كثير ص ٩٤

ولهذا هددهم الله أشد التهديد فقال سبحانه « سنكتب ماقالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق » وكأن القرآن يقرر حقيقة (نفسية) ألا وهي (حقدهم الدفين القديم) فهم أصحاب سوابق إجرامية .

وليس هذا بأول ما ارتكبوه من الجرائم فهم أصلاء في الكفر وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجتراء على مثل هذا القول . « إنهم لم يصفوا (يهوه) الذي يعبدونه ويقرون به بأنه فقير أو شحيح وإنما قصدوا بذلك من ظنوه سواه ، لقد رأوا أنهم أمام تصورين : الأول : عن (يهوه) الذي هو إلههم وحدهم حسب تصورهم والذي من عظيم توقيرهم له يتحرزون حتى من ذكر اسمه ! والآخر : عن (الله) وهو الاسم الذي عرف به محمد ربه ، وهو في نظرهم يذهب بامتيازاتهم التي اكتسبوها مع يهوه !

ومن البداية أجروا لفظ الجلالة الإسلامي مجرى اسم العلم ومن ثمة استباحوا – فيما هيأ لهم فجورهم – أن يقعوا في حقه، وهكذا ذهبوا مذهب القائلين بالثنائية الكونية وأطلقوا ألسنتهم في حق الله فقالوا « إن الله فقير ونحن أغنياء »[1] وقالوا « يد الله مغلولة »[2] وقالوا « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه »[3] وقالوا « ما أنزل الله على بشر من شيء »[4] .

« وفي هذه الآية الأخيرة تتكشف خبيئة صدورهم فهم لا ينكرون رسالة موسى والأنبياء ، وهم لا ينكرون أن (يهوه) هو الذي كتب ألواح موسى وأوصى إلى خلفائه من بعده ، لكنهم أرادوا أن يقولوا إن الله – لا يهوه – ليس له أنبياء وليس بذي وحي أو رسالات، أي كأنهم يقولون : نحن يا محمد

---

(١) على هامش الحوار بين القرآن واليهود الأستاذ حسني الأطير ص١/٩٨

(٢) المائدة : ٦٤

(٣) يس : ٤٧

(٤) الأنعام : ٩١

لا نعرف الله الذى تدعيه إلهاً لك ولا نعرف أحداً ادعاه من قبلك ، وجاء منه بشيء لذلك أمر أن يسألهم « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس»[1] فإما أن ينكروا موسى - ولم يقصدوا لإنكاره - فينخلعوا من عقائدهم أو يصرحوا بأن (يهوه) غير (الله) فيعتبرهم مشركين ، وقد قال لهم «وإلهنا وإلهكم واحد»[2] أو يصمتوا عنه ستراً لشركهم وطويتهم الجاحدة - وهو الأهون - وقد كان ، وسجل عليهم (خبثهم والتواءهم) ، وهكذا قامت عندهم المفارقة بين تصورهم وعقيدة محمد الإله الواحد ، ووراء هـذه المفارقة كمنت عصبيتهم العنصرية .

- لقد جاء محمد - صلى الله عليه وسلم - فأطاح بالعنصرية وكشف تناقضهم المخزى حيث كان اعتقادهم فى وحدانية الله « مرتبطاً باستئثاره بهم وحدهم دون غيرهم من سائر خلقه وهو منزع طفولى مضحك حيث يتصور الوليد الساذج أنه مستحوذ على أمه دون إخوته لالشيء إلا لأنها تبدى من التعاطف والمجاراة فى تصرفاته البلهاء ما يلهيه إلى حين ، وينسى وهو فى تلك المرحلة من الصغر والسفاهة أنه ليس فى نظرها سوى مغفل حقيقى ، تهزأ به وتضحك عليه .. كذلك سخر من دعواهم فى أرض المعاد وأسقط أوهامهم حولها بما تلا عليهم من آيات كاشفا من أخبارهم عن جبنهم وعجزهم وأنهم لم يعودوا أهلا لذلك وأن الأرض أى أرض تكون لمن هو أصلح بالقدرة والعمل لا بالدعاوى الفارغة عن أحلام الآباء والأجداد ، وهكذا كان المنهجان على طرفى نقيض فهذا موسى يقيم الدعوة على صرح ثلاثى من العقيدة والجنس والوطن ، وهذا محمد ينسف ذلك الصرح فيشرق الوجـه الحقيقى لعقيدة التوحيد فى سموها وقداستها وعلى ما ينبغى لها فى أصلها أن تـكون . ولـكن القوم هائمون أبدا حائرون دائما متنـكسون مع موسى ، متنكسون مع محمد »[3] .

(١) الأنعام : ٩١

(٢) العنكبوت : ٤٦

(٣) على هامش الحوار ص ٢٤ - ٢٥

ـــ والعجيب أن اليهود لما وجدوا أن القرآن يكشف أسرارهم ويبين عن مخازى أخلاقهم حاولوا التشكيك فى نصوصه فقالوا : إن محمـــدا تودد إلى اليهود أول مقدمه إلى المدينة طمعًا فى إسلامهم وساق لهم فى القرآن من أجل ذلك نعوت الثناء والتعظيم فلما أبوا وتعالوا غير أسلوبه معهم وساق لهم فى كتابه ألفاظ السباب والتحقير ، فالقرآن على هـذا - أى فى قصد تلك الفرية ـــ اليهود من عند محمد لا من عند الله ، ولعلنا لإبطال هذا الكذب فى غنى عن أن نسوق عبارات الثناء فإن عبارات التنديد بخلائقهم وهو مايزال فى مكة لم يحدث بينهم وبينه أى لقاء ، لها وزنها فى ترجيح دعـــوى المدعين أو إبطالها ، ولدينا ســـورة الأعراف وهى مكية بإجماع ، فلننظر بعض ماتقول فيهم :

١ ـــ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا »[1] .

٢ ـ « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون »[2] .

٣ ـــ وشرع لهم موسى تعظيم السبت لا يعملون فيه شيئًا من عمل الدنيا فاعتدوا فى ذلك فاصطاد بعضهم بعض الحيتان من البحر « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون »[3]

٤ ـ « وإذ تأذن ربك ليبعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسُومهم سوءَ العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم »[4] تلك بعض آيات القرآن

---

(١) الأعراف : ١٥٢
(٢) الأعراف : ١٦٢
(٣) الأعراف : ١٦٣
(٤) الأعراف : ١٦٧

التي نزلت بمكة، فلو أن محمداً كان يقول في القرآن بهواه على حسب المواقف لما كان ذلك التنديد بهم وبخلائقهم قبل أن يلقاهم » (١)

والحقيقة أن محنة (خلق القرآن) التي افتراها اليهود بقصد التشكيك فيه « هي من أشد المحن التي أصابت المسلمين بعد فتنة مقتل عثمان ، وفيها استشهد كثيرون وعذب كثيرون من بينهم أئمة أعلام وفقهاء أجلاء كالإمام أحمد بن حنبل الذي سيم أشد وأقسى العذاب واجتمعت عليه وعلى أمثاله قوى الخلافة والوزارة ومشيخة المعتزلة ، وكلها حينئذ قوى باغية وعنيدة مؤزرة بالسطوة القاهرة والسلطان الباطش وحاولوا جهد مايستطيعون أن ينتزعوا من هذا الإمام الكبير رأيا يوافق مقالتهم، ولكنه لايرى فيما يقولون سنداً من كتاب الله ولا سنة الرسول فيمتنع فيؤمر به فيجلد جلداً يمزق جسده .. فهذه المحنة التي فشت فشو الوباء في المسلمين،وفتكت بالأتقياء الصالحين من علمائهم يهودية أصلا وفرعا ، أو كما يقولون : لحما ودما » (٢)

- والقرآن الكريم يكشف أثر الوثنية ودنسها المتغلغل في نفوس اليهود حيث يقول « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين (٣)

- والآية أولا دليل على جواز الرؤية بدليل طلب موسى لها ، ولكن ما يهمنا في هذا الصدد هو : ما الدافع على هذا الطلب ؟ ، لقد كان من تدبير موسى أن استدرجهم إلى طريق التوحيد بما يلائم خسيتهم وجبنهم وتخلفهم

---

(١) منبر الإسلام العدد ٣ السنة ٢٧ ص ٧٦ الأستاذ البهي الخولي .
(٢) المرجع السابق ص ٢١٦ الأستاذ أحمد وافي
(٣) الأعراف : ١٤٣

الذهني والحضاري فتجاوز عما يرهق عقولهم ولا يشبع جموحهم الحسي ولا يتوقف مع طبائعهم المذعورة وأخلاقياتهم المنهارة »(١) .

وقد سأل القوم نبيهم أن يريهم ربهم فقالوا « أرنا الله جهرة » وقد سجل القرآن هذا ليثبت تشككهم في نبوة موسى ومكابراتهم في الإيمان به، وحتى يدلل على تغلغل الوثنية في معتقداتهم فقد عرضت التوراة لهذا السؤال فقالت: « وقال لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش، وقال الرب . هو ذا عندى مكان فتقف على الصخرة وأسترك بيدى حتى أجتاز ، ثم أرفع يدى فتنظر ورائى وأما وجهى فلا يرى »(٢)

« أننا هنا نرى أثر الوثنية واضحا فهذا ربه يعطيه ظهره ومؤخرته . وهذا هو بدوره يتمثله جسدا معينا محدودًا في المكان ويلمح إلى شكله وتقاسيمه بما ينافى ما ورد صريحا في الوصايا العشر من حيث تنزيهه عن كل صورة في السماء والأرض مما يرى أو لا يرى ، أما ما جاء في القرآن الكريم فهو لا يرى لربه وجها ولا ظهراً بل يتلقى الدرس الذى كان عليه أن يلقنه للذين أزلقوه إلى هذا المنحدر بسبب ما تغلغل في نفوسهم من دنس الوثنية وسفاهتها »(٣)

- إن الجهل والمكابرة يدفعان القوم للخوض في مقام ربهم فتارة يعبدون من دون الله (عجلا جسدا له خوار) فاذا ما سئل السامرى عن هذا أجاب « وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وان لك موعدا لن تخلفه »(٤) فكان جزاء ما زينت له نفسه ألا يخالط أحدا ولا يمسه طوال حياته ، فضلا عن عذاب الآخرة .

---

(١) على هامش الحوار ص ٢٠

(٢) المرجع السابق ص ٤١ وخروج ص ٣٣ : ٨

(٣) المرجع نفسه ص ٤١ – ٤٢

(٤) طه ٩٦-٩٧

وتارة يسألون موسى أن يجعل لهم إلها ماديا محسوسا ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ، (١) فلما لم يكن هذا ولا ذاك قالوا ، لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير هذه الآية ، لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا، فتاب الله عليهم فقال إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذى أمركم به ونهيكم الذى نهاكم عنه فقالوا ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة وحتى يطلع الله علينا ويقول هذا كتابى فخذوه فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى ، (٢)

- ويتمادى القوم فى تمردهم وافترائهم على الله فينسبون لله ولدا - تعالى الله عما يصفون علواً كبيرا - ويحكى القرآن هذا بقول الله سبحانه : «وقالت اليهود عزير ابن الله »(٣)

وسبب هذا أن اليهود لما قتلوا الأنبياء بعد موسى رفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم ، فخرج عزير وهو غلام يسيح فى الأرض فأتاه جبريل فقال له إلى أين تذهب ؟ قال أطلب علماً، فحفظه التوراة، فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لايخرم حرفا فقالوا ماجمع الله التوراة فى صدره هو غلام إلا لأنه ابنه . (٤) .

- ونقف عند هذا التصوير القرآنى ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، .

(١) الأعراف ١٣٨

(٢) راجع ابن كثير جـ ١ ص ٩٤

(٣) التوبة . آية : ٣٠

(٤) النسفى جـ ٢ بتصرف

– فكل قول إنما يكون بالفم وإنما ذكرت (الأفواه) لمعنى نفسى عظيم وكان الله يريد أن يعلمنا أن الصوت الخارج من الفم إما أن يحمل معنى مؤيداً بدليل فذلك هو القول الجدير بتعلق القلب به وإلا فهو مجرد كلام لا يتعدى الفم . ولا يقف مدلول الآية عند وصفهم بهذا (الهراء اللفظى) بل يمتد ليحطم معنوياتهم إذ أن ما فيهم من كفر ليس بمستحون وإنما هو قديم ، وهم به يتشبهون بقول المشركين الذين ليس لهم عند الله يوم القيامة وزن .

– ويبدو أن التمرد على شريعة الله قد لازم اليهودية منذ عهد سحيق وذلك لأن الشريعة إنما تكبح جماح نفس مريضة وتحد من شهوات رخيصة وكيف يكون ذلك وهم أحرص الناس على حياة ؟ فلا عجب إذن أن يولد صراعهم (النفسى) جرأة على المعصية وتطاولا على مقام الله عزوجل فيقولون « يد الله مغلولة » وهم بذلك يصفون ربهم بالبخل أى أن الله أمسك ما عنده بخلا – تعالى الله عما يصفون علوا كبيرا – بعد ما وصفوه سبحانه بالفقر من أجل هذا قابل الله افتراءهم بقوله : « غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » (1)

والآية تكشف جانبا هاما من خبيئة نفوسهم التى انطوت على (الحقد والشح) فضلا عن الحرص الشديد، وكان فى رد الله عليهم ولعنته عليهم ما يؤكد تلك الأمراض النفسية الدفينة. وكثيراً ما عاب عليهم القرآن الكريم حسدهم لجماعة المؤمنين ، أى تمنيهم زوال نعمة الإيمان ، كقوله تعالى :

« ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (2) وكقوله سبحانه: « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » (3)

---

(1) المائدة/٦٤ (2) البقرة / ١٠٩
(3) النساء /٥٤

ولما كانوا هم أحرص الناس على حياة وجدنا أن مرجع أسباب حسدهم إنما هو حب الدنيا والتعلق بها، وأعتقد أن العداوة التي هي بسبب الحقد لن تجد لها دواء مهما أجهدت نفسك في المعالجة!

ورحم الله من يقول:

كلُّ العـــداوة قد تُرجى إماتتها   إلا عداوةَ من عاداكَ من حَسَدِ

- ولعل هذا من أسرار إصرارهم على العداوة والكيد للإسلام ولما كان الشر يدفع للشر وجدناهم لم يتركوا ثغرة ولا سبيلة من وسائل الدس والوقيعة والتآمر إلا استخدموها للنيل من الإسلام بغياً وضغناً وحسداً من عند أنفسهم.

- واليهودي يؤثر كل ما هو مادي - بعمومه - على عقيدته، وقد بلغ هذا الإيثار إلى أن صدَّ اليهودي - من أتباع موسى وخاصته - عن دعوته مقابل عَرَض قليل من أعراض الدنيا ينقلب الرجل إلى العكس تماماً إلى شيطان يصرف الناس عن موسى - عليه السلام - ذلكم هو (بلعام بن باعوراء) كان من أتباع موسى وبلغت ثقة موسى به أن أوفده إلى أهل مدين يدعوهم إلى الله فقدم أهل مدين للرجل مبلغاً من المال شريطة أن يكف عن دعوته وأن يترك موسى... ! فكان لأهل مدين ما أرادوه وأكثر، ولقد أبدع القرآن تصوير هذا الأنموذج الذي جاء على سبيل التمثيل لأخلاقهم فقال سبحانه: «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون. ساء مثـــلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون»[1].

- ولنقف عند قوله تعالى: (فانسلخ منها) لنرى دقة التصوير القرآني فهو لم يقل (فانفصل عنها أو فتركها) أو غير ذلك وإنما قال (فانسلخ) والسلخ

(1) الأعراف ١٧٦، ١٧٧.

كما يقولون كشط الجلد عن اللحم فلو أن الرجل انفصل عن الآيات أو تركها لكان من الجائز أن يعود ولكن (الانسلاخ) أفاد أن عودته إلى دين الله تكاد تكون مستحيلة كما لا يمكن أن يعود الجلد إلى اللحم بعد سلخه ، وكما أن الجلد يزين اللحم ويجعل منظره جميلا مألوفا ، فكذلك كانت آيات الله تزين ذلك الرجل وتجعله جميلا مقبولا ، فلما انسلخ من الآيات أصبح قبيحا دميما كما يبدو اللحم بغير الجلد قبيحا دميما .

ـ ولما كان الجلد يحمى الجسم من عوادى الزمن وأمراضه وبغيره يصبح الجسم عرضة للفناء فضلا عن الأمراض، فكذلك الرجل أصبح عرضة لعوامل الإغواء واستهوته الشياطين ، تتقاذفه تقاذف الرياح للشيء المتناثر البـــالى .

ـ فإذا انتقلنا إلى قوله (فأتبعه) وقفنا عند مدلول العطف بالفاء ـ التى تفيد الترتيب والتعقيب ـ إشارة إلى أن الشيطان قد انتهزها فرصة فبمجرد أن انسلخ من الآيات أتبعه .

ـ ثم ارجع البصر كرتين فى الكلمة نفسها (فأتبعه) تجد أن الشيطان هو الذى تبع الرجل وأن الرجل وقد تمكنت الغواية من قلبـــه أصبح أستاذا لشيطانه على حد قول القائل :

وكنتُ امرأً من جند إبليس فارتقى ـ بى الحال حتى صار إبليس من جندى

ـ فإذا انتقلنا إلى قوله (ولو شئنا لرفعناه بها) علمنا أن تلك مشيئة الله فلو شاء لرفعه بالآيات ـ ولو علم فيهم خيرا لأسمعهم ـ ولا يخرج عن مراد الله شيء وهذا يعنى أن الرجل لم يكن عنده الاستعداد (النفسى) ولهذا رضى بالحقير من الدنيا واطمأن به وقد فقد ضميرا يؤنبه أو نفسًا تراجعه ، وبين غيبة الضمير وقسوة القلب تستمرىء النفس عصيان خالقها .

ـ وما أجمل التعبير بقول الله (ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه)

وما أدراك ما الهوى إنه نوازع النفس إلى مسالك الشرور ، والآية جمعت خمس مقدمات أسلمت إلى نتيجة طبعية أما المقدمات فهى : آتيناه آياتنا - فانسلخ منها - فأتبعه الشيطان - فكان من الغاوين - أخلد إلى الأرض - اتبع هواه - أما النتيجة : « فمثله كمثل الكلب ، وليس المراد كل كلب فهناك الكلب الأمين الوفى الحارس ، وهناك الخسيس الخائن المفرّط وهو المراد هنا حيث يصفه القرآن بقوله « إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، واللهث: اندلاع اللسان (والحمل عليه أو الترك يمثلان حالتى التعب والراحة) والمعنى « فصفته التى هى فى الخسة والضعة كصفة الكلب فى أخسِّ أحواله وأذلها وهى حال دوام اللهث به سواء حمل عليه أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه ، وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا حرك ، أما الكلب فيلهث فى الحالين، فكان مقتضى الكلام أن يقال: ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته ، فوضع هذا التمثيل موضع فحططناه أبلغ حط »(1) .

- وهكذا حلت عليهم اللعنة وباءوا بسخط أبدىٍّ وجنت عليهم خستهم وتردت بهم إلى أن يكونوا أحط من الوثنيين ، واقتضت حكمة الله فيهم التفرق فى الأرض « وقطعناهم فى الأرض أمما ، قال الإمام البيضاوى « أى وفرقناهم فيها بحيث لايخلو قُطر منهم ، تتمة لادبارهم حتى لا يكون لهم شوكة قط »(2) .

وبعـــد :

فهذه بعض المخازى النفسية أو الأخلاقية كما صوّرها القرآن الكريم خالدة مع الزمن تشهد عليهم بخبث الطوية وسوء العشرة وهم خواء النفس من الفضيلة نكث العهد ديدنهم ، وهم صورة مكررة تعيد نفسها عبر الأزمان ، تجرى

---

(1) النسفى جـ ٢ ص ٨٦ .

(2) منبر الإسلام عدد ٣ السنة ٢٧ / ص ٧٣ .

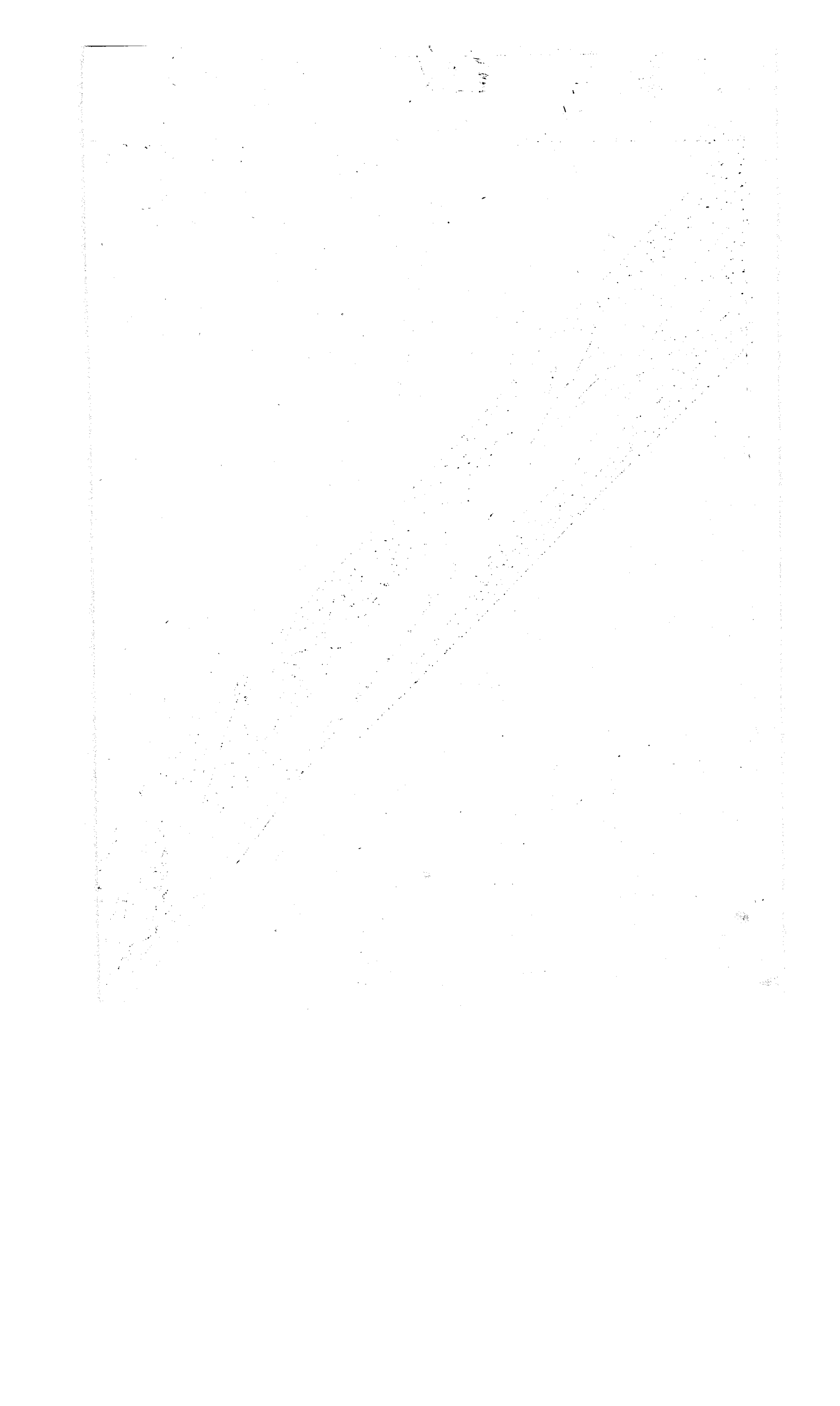
مجرى الأمثال ، يثبتون فى كل موقف عدم أهليتهم لأمانة الحياة التى وكل إلى الإنسان عمارة الأرض بها، وهذا مايستوجب منا - نحن المسلمين - أن نكون دائماً على حذر من أخلاقهم ومن معاهداتهم، وأن اختلفت المسميات ولنتأمل عظمة القرآن وسموه فى قوله سبحانه « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم »[1] .

- نعم : هذا مايجب حتى نتبوأ المكانة التى وصفنا بها القرآن « كنتم خير أمة أخرجت للناس »[2] وحتى لاينطبق علينا قول هذه الأم التى شاهدت ابنها الأمير المسلم الأندلسى يجلس يبكى على ضياع زهرة الإسلام (الأندلس) فقالت له أمه : « ابك كما تبكى النساء على ملك لم تحافظ عليه محافظة الرجال » .

أوتيت ملكاً فلم تُحسِن سياسَتَه   كذاك من لا يصون الملك يخلعه »[3]

(١) آل عمران ٧٣ .   (٢) آل عمران ١١٠ .

(٣) المسجد الأقصى ومعركة النصر والفتح ص ٥٦ .



الفصل الثاني :

الإسلام والإبداع الشعري

أورد القرآن الكريم ذكر الشعر والشعراء في ستة مواضع ، وهي حسب ترتيبها في المصحف : قوله تعالى :

١ - ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ﴾ (١)

٢- ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون . الم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ (٢)

٣- ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ (٣)

٤- ﴿ ويقولون أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ (٤)

٥- ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريبَ المنون ﴾ (٥)

٦- إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ (٦)

فقد نزه الله القرآن من أن يكون شعراً ؛ لأنه معجزة إلهية ، كما نفى أن يكون رسوله شاعراً ؛ لأنه وقر في أذهان العرب حينذاك أن الشاعر يعتمد في عمله على قوة خارقة ترسل الشعر على لسانه إرسالا ، وهذه القوة الخارقة تتجسد في صور الجن والشياطين ، كما ذهبوا إلى أن لكل شاعر شيطاناً أو جنياً بل نسبوا الشياطين إلى قبائل ، فهذا من قبائل عبقر وهذا من بني الشّصبان ، يقول حسان بن ثابت :

ولي صاحب من بني الشّصبان . * فطوراً أقول وطوراً هوه !

---

(1) الأنبياء آية /٥

(2) الشعراء آية / ٢٢٤ - ٢٢٧ .

(3) يسن آية ٦٩ .

(4) الصافات / ٣٦ .

(5) الطور آية / ٣٠

(6) الحاقة / ٤٠ - ٤٣

ولا يفهم من ظاهر الآيات أن الإسلام يهاجم الشعراء ،أو يكره الشعر كما فهم ذلك بعض صحابة رسول الله ﷺ فقد ورد أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون ، قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء ، فتلا النبي ﷺ : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال :" أنتم " ﴿ وذكروا الله كثيرا ﴾ قال :" أنتم "[١] كما أن الآية الكريمة أباحت لهؤلاء الشعراء المؤمنين المستثنين الانتصار لدينهم ونبيهم وأنفسهم من المشركين ، ومن ثم أذن ﷺ لشعرائه هؤلاء في هجاء أعداء الله ، ولذلك صنع النبي ﷺ جبهة إسلامية من الشعراء والكتاب ترد كيد الكائدين . روت عائشة - رضي الله عنها - قالت : كان رسول الله ﷺ يضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله بل دعاه إلى هجائهم ودعا له بالتأييد فيه ، فقال له: " اهجهم وروح القدس معك "[٢]

وأنشد النابغة الجعدي رسول الله ﷺ قوله :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا * وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فأعجب به وقال له : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقال : الجنة بك يا رسول الله ، قال : نعم : إن شاء الله فقضى له بالجنة بسبب شعره ، فلما قال :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له * بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له * حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال له ﷺ : أجدتَ . لا يفضض الله فاك . قالوا فلقد رئي ، وقد أتت عليه مائة سنة أو تزيد وما انفض من فيه سن ![٣]

وأنشده حسان وهو يجاوب عنه ﷺ أبا سفيان بن الحارث ، قوله :

هجوت محمداً فأجبتُ عنه * وعند الله في ذاك الجزاء

فقال ﷺ له : جزاؤك الجنة يا حسان . فلما قال :

---

[١] راجع ابن كثير ج/٣

[٢] جمهرة أشعار العرب لأبي زيد بن الخطاب القرشي ص/ ١٥ .

[٣] المرجع السابق ص/ ١٦ والأغاني ج/٤ / ١٢٩ .

فإن أبي ووالده وعرضـــي * لعرض محمد منكم وقاء
قال له : وقاك الله حرَّ النار ، وقضى له بالجنة مرتين في ساعة واحدة .

أثر الإسلام في الشعر :

-١-

اختلف تأثر شعراء الجاهلية الذين أدركهم الإسلام به ، في معانيهم وفي أساليبهم تبعاً لاختلاف بيئاتهم ، وتبعاً لمدى خضوعهم للإسلام وتغلغله في أرواحهم .
وطبعي أنه ليس من الهين الانسلاخ عن المواهب الأصلية التي رسخت في النفوس ، فتغير ملكات الشعر ومواهبه كتغير الطبائع لا يتم إلا على يد جيل جديد ، لذلك نرى الأسلوب الجاهلي ظل خالصاً عند بعض الشعراء ، كالحطيئة ولبيد بن ربيعة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت .

أما الحطيئة : فكان أقل هؤلاء تأثراً بالإسلام وأكثرهم استمساكاً بجاهليته في أغراضه ومعانيه ، وأساليبه وألفاظه ، لجفاء طبعه ، ولؤم طويته ولم تكن له برسول الله صحبة [1] ولربما تأخَّر في اعتناقه الإسلام حتى توفي الرسول ﷺ ؛ ولهذا نراه يؤازر بشعره المرتدين ضد أبي بكر وخلافته حتى ليقول :[2]

أطعنا رسول الله إذ كان حاضرا   فيا لهفتي ما بال دين أبي بكر
أيورثها بكراً إذا مات بعده   فتلك وبيتِ اللهِ قاصمةُ الظَّهر

بيد أنه عاد مع المرتدين إلى حياض الإسلام ، وقد بالغ الرواة في اتهامه بالبخل ودناءة النفس .. ولكن من الإنصاف أن نذكر بعضاً من تأثره بالإسلام في شعره ، فهو في مديح له يستهله بالثناء على الله ، فيقول :

---

[1] راجع حسان بن ثابت . د. محمد طاهر درويش ط/ دار المعارف .
[2] الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ص/ ١٩٩ ط/ دار الكتب العلمية .

الحمد لله، إني في جوار فتىً * حامي الحقيقة نفاعٍ وضرارِ

ويقول أبو عمرو بن العلاء : لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة :

من يفعل الخيرَ لا يعدم جوازيه * لا يذهبُ العرف بين الله والناسِ

وأما لبيد بن أبي ربيعة : فقد حسن إسلامه وتنسك وحفظ القرآن ، وهجر الشعر . فقد كتب عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبة عامله على الكوفة ، أن استنشد من قِبلك من شعراء مضر ما قالوه في الإسلام ، فأرسل إلى لبيد ، فقال : أنشدني ما قلت : قال : إن شئت ما عفى عنه ، (يعني الجاهلية) فقال : لا ، أنشدني ما قلت في الإسلام ، فانطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة ، ثم أتى بها وقال : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر ، وقالوا : لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً هو :

ما عاتب الحرَّ الكريمَ كنفسهِ * والمرء يصلحه الجليس الصالحُ

ويرى بعض النقاد أن للبيد شعراً في الإسلام مستدلين بالفارق الشاسع بين أسلوبه في الجاهلية ، وما أثر عنه من شعر يتفق وروح الإسلام ، ومعاني القرآن ، فقد وصف الأصمعي شعر لبيد بقوله : شعر لبيد كأنه طيلسان طبراني أي محكم الصنعة ، ولا رونق له ، وكان شعره غاية في الإغراب ، وخذ من معلقته ما شئت من أمثله ، وكان في الجاهلية يقصر شعره على المديح والهجاء والفخر بنفسه وبالإباء ، فلما أسلم انتقل من الألفاظ الحوشية إلى الديباجة الطلية حيث تغلغل الإسلام في ضميره فاتجه إلى ربه ، والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب [1] يقول :

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلوها وغدواً بلاقعُ

والمرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

---

[1] راجع العصر الإسلامي د/ شوقي ضيف والموشح للمرزباني .

وما البرُّ إلا مضمراتٌ من التقى   وما المالُ إلا عارياتٌ ودائعُ [1]

وانطلاقاً من هذه الروح الإسلامية ، وعلى هذا المنوال ، هو يدعو للتقوى والعمل الصالح ، فيقول في لاميته التي نؤمن بأنها نظمت في الإسلام ومنها :

ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطلُ   وكل نعيمٍ لا محالة زائلُ
وكل أناس سوف تدخل بينهم   دويهيةٌ تصفرُ منها الأنامل
وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه   إذا كشفت عند الإله الحصائلُ

ففي الأبيات الثلاثة تأثر بالقرآن الكريم ، فالبيت الأول يستمد من قوله تعالى: ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ والبيت الثاني يستمد من قوله تعالى:﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾أما البيت الثالث : فيستمد من قول الله عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب ﴿ ألا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور ﴾
والقصيدة ليست في رثاء النعمان بن المنذر ، كما ظن بعض القدماء وإنما تتحدث عن عظمة الموت وكيف يأتي على الملوك والأمم .!
أما كعب بن زهير ، فقد كان لرسول اللهﷺ معه موقف من أعظم المواقف التي كانت سبباً في إسلامه ! فقد روى أن كعب بن زهير لما أسلم أخوه بجير كتب إليه أبياتاً يلومه فيها على إسلامه ويهجو الرسول ﷺ ويشبب بنساء المسلمين ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فتوعده وأهدر دمه ، وعلم كعب ، فضاقت عليه الأرض بما رحبت ـ وقد تخلى عنه أقرب الناس إليه ـ فقدم على رسول الله ﷺ فبدأ بأبي بكر ، فلما سلم النبي ﷺ من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته ، فقال يا رسول الله هذا رجل جاء يبايعك على الإسلام فبسط النبي ﷺ يده ، فحسر كعب عن وجهه وقال : هذا مقام العائذ بك يا رسول الله أنا كعب بن زهير فتجهمته الأنصار ،

[1] بلاقع : جمع بلقع ، وهي الأرض القفر . وغدوا : غدا .

وغلّظت له ، وأحبت المهاجرة أن يسلم ويؤمنه النبيﷺ فأمّنه ﷺ فأنشد كعب مدحته التي أولها :[١]

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ * متيم إثرها لم يُفد مكبـول[٢]

ومنها :

كل ابن انثى وإن طالت سلامته	يوماً على آلة حـدباء محمول
نُبِّئت أن رسـول الله أوعـدني	والعفو عند رسـول الله مأمول
لا تأخذني بأقوال الوشـاة فلم	أذنب وإن كثرت فيَّ الأقاويل

فكانت أحسن الوسائل إلى الشفاعة ، وأوثق الذرائع إلى الصفح عنه . والقصيدة عدتها ثمانية وخمسون بيتاً ، تظهر فيها خصائص الشعر الجاهلي عامة وخصائص مدرسة زهير بن أبي سلمى خاصة : فقد بدأها بالغزل حيث تحدث عن محبوبته" سعاد" ثم انتقل إلى وصف ناقته ثم وصل إلى غرضه وهو " الاعتذار " لرسول الله وإعلان إسلامه ثم خلص إلى مدح رسول الله ﷺ . وكعب لا يريد باعتذاره أملاً دنيوياً ولا يبغي بمدحه تكسباً ولهذا كان اعتذاره راقياً ومديحه بعيداً عن التملق والاستجداء ، غاية الأمر أن رجلاً شرح الله صدره للإسلام وكان تهديد النبي ﷺ له بمثابة الصحوة من غفلة الجاهلة الأولى ، فجاء يعتذر عما فرط منه فهو اعتذار لله ورسوله .

وترى استحسان الرسول ﷺ لإنشاده حيث ينظر إلى جلسائه ، وكأنه يومئ إليهم أن اسمعوا جتى قال كعب :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم * ضرب إذا عرَّد السود التنابيل[٣]

(1) الشعر والشعراء ص/ ٨٠ .

(2) بانت : رحلت والتبول : السقيم من الحب والمكبول المقـيد والأسير .

(3) عرد : هرب وفر . التنابيل : القصار .

وفيه تعريض بالأنصار لغلظة - كانت فيهم - عليه ، فأنكرت قريش ما قال كعب ، وقالوا : ما مدحتنا إذ هجوتهم ، ولم يقبلوا منه ذلك التعريض فقال :

من سرَّه كرم الحياة فلا يزل في مقنبٍ من صالح الأنصار
الباذلين نفوسهم لنبيِّهم يوم الهياج وسطوة الجبَّار
يتطهرون كأنه نسك لهم بدماء من علقوا من الكفار

فكساه ﷺ بردةً ، اشتراها بعد ذلك منه " معاوية بن أبي سفيان " بمال عظيم يقال: عشرة آلاف درهم ، وظلت الخلفاء تلبسها من بعده في العيدين ، زعم ذلك أبان بن عثمان بن عفان [1]

وقد أصلح الرسول ﷺ لكعب بعض قوله حين أنشد :

إن الرسول لنور يستضاء به * مهند من سيوف الهند مسلول

فجعل " سيوف الله " بدلاً من سيوف الهند

أما حسان بن ثابت : فقد كان من أعظم الشعراء الذين أدركوا الإسلام ، فأبلى فيه بلاءً حسناً حتى أصبح يعرف بشاعر الرسول

لقد كان قبل الإسلام فخوراً بطبعه وجبلته (يفخر بآبائه وقبيلته) فلما أسلم فاخر بفعال قومه في الإسلام وحسن بلائهم في نصرته ،وما قدموا للرسول ﷺ من إيواء وأمن وإعزاز وبذل يوم هجرته ﷺ يقول :[2]

وثوى بمكة بضع عشرة حجة يذكّر لو يلقى خليلاً مواتيا
فلما أتانا واطمأنت به النوَى فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وأصبح لا يخشى عداوة ظالمٍ قريبٍ ولا يخشى من الناس باغيا
بذلنا له الأموال من جُلّ ما لنا وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
نحارب من عادى من الناس كلهم جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله لا ربَّ غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا

---

(1) الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء ص/٨٠ ، ٨١ .
(2) راجع حسان بن ثابت ، د. محمد طاهر درويش ص/ ٣٣٨ ط/ دار المعارف بمصر .

فهو يُدِل في رفق بصنيع قومه ، ويعلن إسلامه ، ويؤرخ للهجرة .

- ٢ -

وقد سار الخلفاء الراشدون على نهج رسولهم من حيث التفرقة بين شعر وشعر والتأثر به والمجازاة عليه ، ومن ذلك ما روي : أن أمية بن حرثان بن الأسكر ، لما هاجر ابنه " كلاب" إلى حرب الفرس فزع إلى عمر بن الخطاب وأنشده أبياتاً منها :

لمن شيخان قد نشدا كلابا   كتاب الله إن حفظ الكتابا [١]
تركت أباك مرعشة يداه   وأمك ما تسيغ لها شرابا

فأمر عمر بإشخاصه إليه ! وكذلك ممن فزع إلى عمر "أبو خراش الهذلي" حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام ، فأنشده شعرا مؤثرا فأمر برده عليه ، وألا يغزو من له أب هرم إلا بعد أن يأذن له راضياً بهجرته.

ولعل في هذا - على كثرته - ما يصور كيف كان يترامى شباب العرب على الجهاد في سبيل الله ، ومع هذا يأبى المستشرقون إلا أن يجعلوا تلك الفتوحات الرائعة ابتغاء الدنيا والغنائم ، لا ابتغاء الله وثواب الآخرة ، وربما كان من خير ما يرد عليهم قول النابغة الجعدى لامرأته ، وقد أظهرت تأثرها لهجرته في فتوح فارس : [٢]

يا ابنة عمِّي كتابُ الله أخرجني   طوعاً وهل أمنعنَّ الله ما فعلا
فإن رجعتُ فرَبُّ الناس يرجعني   وإن لحقت بربي فابتغي بدلا
ما كنت أعرجَ أو أعمى فيعذرني   أو ضارعا من ضنىً لم يستطع حولا [٣]

ففي الأبيات رد على مزاعم المستشرقين ، وفي الأبيات تأثر واضح بروح الإسلام وبما جاء في قوله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج .. ﴾ الآية [٤]

---

[1] يقصد ما في كتاب الله من رعاية الأبناء للآباء والبر بهم .
[2] راجع العصر الإسلامى ، د. شوقي ضيف . ص ٥٧ .
[3] ضارعا : شاويا نحيلا . ضنى : مرض.
[4] النور آية / ٦١ .

والمتأمل لآراء المؤرخين والنقاد حول أثر الإسلام في الشعر والشعراء يقف على وجهتي نظر[1] مختلفتين ففريق يري : **أن الإسلام أضعف الشعر** ، حين تشاغل عنه العرب لدراسة القرآن والدعوة إلى الله ، والجهاد في سبيله ، كما أغلق الإسلام أغراضاً برع فيها الشعراء الجاهليون كالفخر الفردي والقبلي ، ووصف مجالس الأنس واللهو ، والغزل الحسي ، والمدح المغالي، وما إلى ذلك من موضوعات يكرهها الإسلام . كما يرون أن العرب قد انصرفت عن الشعر في صدر الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً.. خاصةً لما تغيَّر المثل الأعلى للبيان العربي بعد نزول القرآن ، فلم يعد الشعر وحده المثل الأعلى ، بل أضحى أنواعاً أخرى من النثر .

ويرى هؤلاء أن تشبيه مشركي قريش النبي ﷺ بالشاعر وقوله بالشعر ودفع القرآن عنه ذلك جعل الناس ينظرون إلى الشعر على أنه تقليد جاهلي ، شأنه شأن جميع التقاليد الجاهلية التي حاربها الإسلام ، وكأنه أثر من آثار الوثنية التي ذهبت بكل أثقالها ، فلما عمَّ الإسلام أصاب هذا الشعر ما أصاب تلك التقاليد الجاهلية من كراهية في نفوسهم ، فتناسوه وامتنعوا عن روايته ، فكان هذا كفيلا أن يباعد بين العرب والشعر ولو إلى حين . .

أما الفريق الآخر ، فيذهب مذهباً مخالفاً لذلك ، يقول د/ شوقي ضيف : " ومن الظلم للإسلام أن يقال : إنه كفَّ العرب عن الشعر ووقف نشاطه فقد كان يُنشد على كل لسان وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله سواء في معركة الإسلام مع الوثنيين أو المرتدين أو في الفتوح أو في معركة "علي " مع خصومه في العراق ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حلت من عقد الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بنا نجد مكة

[1] راجع مجلة كلية التربية جامعة صنعاء عدد ٣ ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م ص/ ٣٩ وما بعدها.

التي لم تعرف في الجاهلية بشعر كثير، يكثر شعراؤها وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء في الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها وهم يسمَّون جميعاً مخضرمين من الخضرمة وهي الاختلاط لأنهم خلطوا في حياتهم بين الجاهلية والإسلام فعاشوا في العصرين معا .[1] وتقول د/ عائشة عبد الرحمن :" ولو صح أن الحياة استغنت في تلك الفترة الثورية الجادة المؤمنة عن الشعر والشعراء لكانت القاضية إذ يكون ذلك شاهداً على أن لا مكان للأدب في مجتمع جاد ثائر مناضل " وتذهب إلى أن التطور العام الذي حدث هو أن الإسلام أراد لشاعر القبيلة أن يصير شاعر الأمة ، فلم يهدر ذاتية الشاعر بل أراد لها أن ترحب فلا تعود محدودة بنطاق الأسرة والقبيلة .[2]

فنحن أمام موقفين يبدوان لأول وهلة متباينين متناقضين .. ولكي نفصل بين الفريقين برأي يرتضيه الذوق والعقل علينا أن نعيش مع نماذج من هذا الشعر الذي واكب الدعوة الإسلامية ، وعاش أحداثها وتشبع بتعاليمها . يقول النابغة الجعدى :[3]

أتيتُ رسول الله إذ جاء بالهدى	ويتلو كتاباً كالمجرَّةِ نيِّرا
بلغنا السماء مجدنا وجدودنا	وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا
ولا خير في حلم إذا لم تكن له	بوادر تحمي صفوه أن يكدَّرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له	حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

والأبيات تسجيل لفضل رسول الله ﷺ وتعاليم الدين الجديد والقرآن الكريم ، وفخر بما أصاب المسلمين بالإسلام من عزة ومجد ، وحكم سائرة مجردة عن تجربة واقعية ، قد أعجب الرسول ﷺ بهذه الأبيات ودعا لصاحبها بألا يفضض الله فاه لأنها تلتزم بالصدق ، وتدعو إلى فضائل الأخلاق ، وهو ما يدعو إليه الدين .

---

(1) العصر الإسلامي د/ شوقي ضيف ط/١٠ دار المعارف ص/ ٤٦ .

(2) قيم جديدة للأدب العربي ص/ ٦٦ ، ٧٧ .

(3) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص/ ١٧٧ ط/ دار الكتب العلمية .

ويقول حسان بن ثابت :[1]

قومـي الـذين هـمُ آوَوا نبيَّـهمُ ... وصدقوه وأهل الأرض كفارُ
أهلاً وسهلاً ففى أمن وفى سعة ... نعم النبيُّ ونعـم القِسم والجار
فأنـزلـوه بـدار لا يخـافُ بـها ... من كان جارهم جاراً هي الدار
وقاسموه بها الأموال إذ قدمـوا ... مهاجـرين وقسم الجاحد النار
سـرنا وساروا إلي بدر لحينهـمُ ... لو يعلمون يقين العلم ما ساروا
دلاهـُم بغـرور ٍ ثم أسـلمـهم ... إن الخبيثَ لمنْ والاه غـرَّارُ
وقال : إنـّي لكم جـارٌ فأوردهـم ... شرَّ الموارد فيه الخزي والعار

ويغلـب علـى الأبـيات التسـجيل والسـرد والـتأثر الحرفـي المباشـر بالقرآن الكريم في البيت الأخير .. وإذا تتبعنا الشعر الذي ورد في صدر الإسلام نجد أنه لم يكن على المستوى الفني الذي كان عليه في العصر الجاهلـي وإن كـثر شـعراؤه وغـزرت مادتـه وتعـددت موضـوعاته ، وعندي[2] أن الفريق الذي ذهب إلى ضعف الشعر في صدر الإسلام كان أصح نظرا .. ويمكننا أن نضيف إلى عوامل ضعف هذا الشعر التي عول عليها الفريق الأول ، الالتزام الذي فرضه الشعراء على أنفسهم مؤمنين ومشركين ، الأمر الذي جعل كلا الفريقين يسارع بتسجيل الصراع بينهما حتى خلفوا لنا من النقائض الشيء الكثير وأصبح شعرهم جميعاً يغلب عليه ورح المناسبات وشعر المناسبات يتسم بلون من التكرار والسرد والتسجيل وضياع شخصية الشاعر وانغلاق دائرة فنه ، والنظرة الشكلية إلى الأحداث ، كما يفرض على الشاعر اللحظة الزمنية التي ينبغي أن ينفعل بها .. والموضوع والزاوية التي ينظر على أساسها لهذا الموضوع ومن ثم يغلب على هذا الشعر فقر في قاموس الشاعر اللفظي فيدور في عدة ألفاظ مكررة معادة ... والشعر الذي يقتصر على الوصف التصويري أو على سرد الأحداث لا يكاد يعدو نطاق الرؤية ؛

---

(1) ديوان حسان تحقيق د/ سيد حنفي حسنين ط/ دار المعارف ص/ ٣٨٨ .

(2) راجع د/ ثابت محمد بداري ، مجلة كلية التربية جامعة صنعاء العدد الثالث ص/ ٤٣ ، ٤٥

لأنـه يقتصر علـى استعراض للجزئيات المرئية وهـي مبذولة لكل ذي باصرة ، فأي فضل للشاعر في التنبيه إليها ؟

أما الشعر الحقيقي فهو الذي يجيء من أفق لا ينتهي ، ويتجه نحو أفق لا ينتهي .. فشرط الشعر أنـه يكشف لنا مجهولاً ؛ لأن الشعر الذي يقدم لنا المنكشف المعروف لا يكون إلا ترتيباً آخر لما عرفناه ، وصياغة ثابتة لما خبرناه ،أي أنه يكون عقلياً ويكون ناقلاً ، ولا يكون - من ثم - شعرا .

وإنصافاً للإسلام نقول :[1] إنـه لم يكن مسئولاً عن هذا الضعف الذي أصاب الشعر في صدر الدعوة وحتى العصر الأموي ؛ لأن القرآن ضرب بآياته المثل الأعلى في البيان والتصوير والمعاني والصياغة ، ودعا إلى إرساء الحياة الدنيا على دعائم من الأخوة والمساواة والعدل والإحسان وفضائل الأخلاق ... وأن العرب - وفيهم الشعراء - قد بهرتهم هذه القيم الجديدة ، فراحوا يرددون ألفاظاً أو تراكيب قرآنية يطعمون بها كلامهم دون تمثل حقيقي لما وراء هذه التراكيب من قواعد جديدة وسديدة في ميدان الفكر والشعور ، وربما يظهر أثر لذلك كله في شعر الأجيال التالية لشعراء صدر الإسلام بعد أن تم إرساء هذه التعاليم والقيم وامتزجت بمشاعر المسلمين جميعا ، وأصبحت ديدناً لهم وسلوكا .

ومن الجدير بالذكر أن الإسلام ، وإن وجه الشعر وجهة أخلاقية ، وأعلن تقديره لمن يلتزم جانب الصدق والحق - لم يلزم الشعراء بهذا المنهج إلزاماً بدليل ما جاء في مطلع لامية كعب بن زهير من غزل في ثلاثة عشر بيتاً ، وكذلك ما جاء في مطلع قصيدة حسان بن ثابت في فتح مكة من غزل وحديث عن الخمر .. وقد استمع الرسول ﷺ إلى مثل هذا الشعر ، ولم يوجه لوماً إلى أصحابه بل عفا عن كعب بن زهير وأهداه برداً .. ودعاﷺ جبهة الشعراء المسلمين إلى هجاء المشركين والرسولﷺ يصدر في هذا الموقف عن القرآن الكريم ؛ فقد سجل سبحانه وتعالى في آيات الشعراء أنهم يقولون ما لا يفعلون ، فحديث الشاعر عن حبيبةٍ له ، أو وصف الخمر هو الجانب الفني وليس الجانب العملي من شخصية

[1] المرجع السابق ص/ ٤٨ - ٥٠ بتصرف .

الشاعر . ومن ثم لا نجد داعياً للقول بأن أبيات حسان أنشأها قبل الإسلام أو قبل تحريم الخمر ، وأن أبيات كعب قالها قبل إسلامه . والقرآن نفسه هو الذي فتح باب انتصار الشعراء المؤمنين لأنفسهم وللدين الجديد من المشركين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ ومن هنا يمكننا أن نقول : إن الإسلام لا يعارض الفنون الجميلة التي ترقى بالنفس ، وتشبع حاجات الروح ، ولا يمنع الشعر الذي يتغنى فيه صاحبه بأحلامه وأحلام قومه وأمته ، أو يصور فيه أشواق روحه ، وأشواق الإنسان بصفة عامة ما دام لا يعرض لأعراض الناس بسوء ، ولا يعمد إلى بث الفساد بينهم ، ولكي يكون الشعر شعراً فلا بد أن يحمل عناصر الشعر الحق ، من عاطفة مبدعة واقتدار لغوي وسمو في الخيال وروعة في التصوير وصدق في التجربة وعمق في الفكرة مع امتزاج هذه العناصر جميعاً في بوتقة الفن فتخرج نسيما جديداً يهز الوجدانات ويحرك المشاعر وينقل القارئ أو السامع إلى عالم الشعر والشاعر .

ومن الخطأ الفادح أن نحكم على الإسلام من خلال آثار هؤلاء الشعراء ، فشتان ما بين دعوة الإسلام وروح الإسلام وبين هذا الشعر ، فذاك منهج الله لضبط حركة الحياة لخير الناس جميعاً، وهذه محاولة لرصد هذا المنهج ، تنجح حيناً وتخفق أحياناً ، وحتى بعد أن عاد الشعراء سيرتهم الأولى من حرية القول في ظل الدولة الأموية وما بعدها لا نجد للإسلام إلا ظلاً خفيفاً في صياغتهم الشعرية ؛ فقد توسعوا في الأغراض وافتنوا في ألوان المجاز .. ومع أن الإسلام في حقيقته ثورة على الجاهلية شكلاً ومضموناً ودعوة صريحة للتحرر من قيود الاتباع والمحاكاة ، وتركيز على إعمال العقل والتفكير في النفس وفي ملكوت السماوات والأرض .. وكان ذلك كله حافزاً للشعراء على الخروج من القالب القديم إلى قالب جديد يتلاءم مع هذه الروح الوثابة المتحررة ، ولكن غلبة المحاكاة والإيمان بالموروث والخوف من المغامرة والاكتشاف في ميدان الفكر والأدب حال دون تجديد حقيقي في الشعر العربي القديم .[1]

---

[1] راجع مجلة كلية التربية جامعة صنعاء عدد ٣ ص/ ٥٠

والأدب الحديث - شعره ونثره - في ظل التصور الإسلامي مرآة لأدق الانفعالات ، وأرق العواطف ، وأنبل المشاعر ، وأسماها في إطار النفس السوية . والتأثر بالبيان القرآني في الشعر المعاصر يأتي في ثلاثة محاور :[١]

١- فقد يتأثر الشاعر بالبيان القرآني صياغة وفكراً وشعوراً ، فيستمد من المعجم القرآني ألفاظاً وتراكيب ، وتنطلق رؤيته الشعرية من مقومات التصور الإسلامي للحياة عقيدة وعبادة وعملاً .

٢- وقد يتأثر الشاعر بالمعجم القرآني ، أي بألفاظه وتراكيبه ، ولا تُشحن روحه بطاقة الإيمان الدافعة ، وحينئذ يصبح التأثر شكلياً أدائياً يظل بمنأى عن نسيج الرؤية الإسلامية الطامحة إلى فعالية الوجود الحضاري المسلم .

٣- وأحياناً يكون التأثر سلبياً مضاداً ، وذلك حين يسيء الشاعر استخدام الألفاظ والتراكيب والمعاني القرآنية .. كأن يضعها في غير مكانها اللائق أو أن يسوقها في معرض السخرية والتهكم ، أو أن يحاول - جهلاً وغروراً وادعاءً محاكاة أسلوب القرآن الكريم ظناً منه أنه قادر على إبداع بيان في مثل البيان القرآني العظيم ومثل هذه المحولات تبوء بالفشل الذريع .

ومن أمثلة الظاهرة الأولى ما جاء في شعر " محمد بنعمارة "[٢] ، يقول مستوحياً قوله تعالى :﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ .

ورأيت الماء لوناً ناعماً

وغرست الحرف في الملح وناديت حبيباً عاشقاً

---

[1] راجع الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق د . صابر عبد الدايم ص/ ٥٢ وما بعدها .

[2] من شعراء المغرب الملتزمين بالتيار الإسلامي .. ومن المجددين في الشكل تجديداً فنياً واعياً .

نطـــــــق المـــــاء وقـــــــــال
أنت كهـــــــف .... أنت طيـــــــــن
أنت نســـــل المـــــاء إذ صـــار رمـــــادا

وينتصر الشاعر لصراع الروح مع المادة ، ويعلن أنه من كائنات مملكة الروح .. بل يدعو لإعادة صياغة الحياة في إطار القيم الروحية ودعوته يقدمها في أسلوب رمزي شفاف متأثر بالبيان القرآني ، يقول:

أنت النخـــلة فـــي جســد الصحـــــــراء
أنت المؤمن بحديث المهد الأول تحت جنح العذراء

والخطاب الشعري هنا يتكئ على أداة الخطاب " أنت " ويكررها الشاعر في بداية كل بيت إعلاناً منه عن الهوية .. وما النخلة العطاء إلا رمز للحياة الخصبة في قلب الجدب الصحراء . وتنامياً للشعور الفني والحس الإسلامي نراه يقرن النخلة بحديث المهد الأول تحت جناح العذراء ، وما حديث المهد الأول إلا حديث سيدنا عيسى - عليه السلام - حين قال المرجفون﴿ كيف نكلم من كان في المهد صبياً ﴾[1]

وما النخلة إلا صدى إيماني لمعجزة عيسى وأمه مريم حيث أمرها ربها بعد أن وضعت وليدها ، بقوله سبحانه : ﴿ وهزي إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ [2]

وحديث المهد الذي نطق به البيان القرآني ﴿ قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعاني نبياً وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ [3]

---

(1) مريم آية / ٢٩ .
(2) مريم آية / ٢٥ .
(3) مريم آية / ٣٠ - ٣٣ .

والشاعر" صابر عبد الدايم "[1] يبدأ قصيدته " الفزع الأكبر " بست آيات من سورة الطور ، وهي بداية لها دلالتها الفنية ، فالقصيدة كلها تتشكل من نسيج الألفاظ والتراكيب القرآنية ، وهي بذلك المسلك الفني تعلن أن أزمة الأمة العربية والإسلامية في صراعها مع المد الإسرائيلي الغاشم لن يجد منها المسلمون مخرجاً إلا بالاحتكام إلى آيات هذا القرآن والسير في ظلال مبادئها وأضوائها المبددة لظلمات الشرك والجهل والوثنية والاستعلاء !

وتبدأ القصيدة بهذه الأقسام :

" والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور
والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور "
" والشعب المقهور
والأقصى المهجور
والقدس المشطور
قد جاء الأمر وفار التَنُّور
والعالم يغرق في الديجو
والسلم يفتش عن ساعده المبتور " !

فالقصيدة بهذه الصيغة الإسلامية تعلن - من خلال فنية الأسلوب - أن مأساة المسلمين عامةً ، وفي فلسطين خاصة لن يبدد ليلها الطويل إلا بعودة الهوية الإسلامية، واستعادة بريق المد الحضاري الإسلامي المتوارى خلف غيوم الحضارة المادية الحديثة ، وتشرق هذه التراكيب في آفاق القصيدة :

فسماوات العصر انشقت
والأرض أراها قد مدت
ألقت ما فيها وتخلَّت

---

[1] د/ صابر عبد الدايم ، ديوان " المسافر في سنبلات الزمن " ص/ ٣٨ والأدب الإسلامي ص/ ٥٧

وترد أيضاً هذه التراكيب والأساليب :

مجراهـــا باســـم الله ومرســـاهـــا
تصغي للصوت القادم من لدن الملأ الأعلى
فاسلك فيهـا من كل زوجـين اثنين وأهـلـك
" إلا من ســـــبق عليـــــه القــول "

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

٢ـ التأثر الشكلي الأدائي :[١]

هذا لون من تأثر الشاعر في تجربته الشعرية بالألفاظ والتراكيب القرآنية فحسب ، بينا يكون بعيداً عن لب التجربة أو الرؤية الإسلامية الشاملة ، من ذلك تجربة " محمد أبو دومة " في ديوانه " السفر في أنهار الظمأ " وذلك حين يوظف التراث العربي الإسلامي توظيفاً فنياً في إثراء تجربته ، والدفاع عن قضيته ، ونطالع في ديوانه هذه الاقتباسات القرآنية :

تبَّت يدا الجـــاني وتب
فما اقترفتم مُحضراً تجدوه
كل بما كســبت يداه رهين

ويقول في مفتتح قصيدته " السغب الظمي في البلاط الفاطمي "

أحللنـــا لكم الميتـــــة والدم والخنزير
فليخبر حاضركم غائبكم يا إخواننا في الطاعـة
لأولـــي الشأن المعصـومين النـــــزهاء

والشاعر في معرض السخرية من أولي الشأن ولذلك يعرض بهم في قوله : " المعصومين النزهاء " الذين أحلوا الميتة والدم والخنزير

---

(1) المرجع السابق ص/ ٦٧ بتصرف .

مخالفين ما جاء به القرآن ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ﴾ [١] وفي القصيدة نفسها يقول الشاعر :

ســـــــــــــــُدت دور الصـــــــــــــــدقة

نصبت في أروقة الأزهر كل بنود البر

وصـار لصـوص الأمن همُ العســـكر

قـــال : " الســـجن أحـب إلـــي "

وواضح أن موقف سيدنا " يوسف " الرافض لإغراء امرأة العزيز كان مصدراً من مصادر تجربة الشاعر، حيث يقول سبحانه: ﴿ قال رب السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهنَّ أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾[١] ولكن الشاعر جعل السجن عقاباً لرفض الذل والحرمان والجدب ، وليس عقاباً على رفض الإغراء وعدم الاستجابة لمتع الحياة الرخيصة كما في قصة يوسف " وليس هناك من جامع بين قضية الشاعر والسياق القرآني سوى نزعة الاعتراض ، ومن هناك كان التأثر شكلياً لا يتعدى دائرة اللفظ والصياغة ، ولا ينفذ إلى عمق النص ، ولا يتوهج بإشراقات الإيمان وقد تكون للشاعر قضيته التي يدافع عنها... ولكنها برغم هذا التأثر بالبيان القرآني خارج الرؤية الإسلامية التوَّاقة إلى الوجود الإسلامي المؤثر في المسيرة الإنسانية "[٢]

❁❁❁❁❁❁❁❁

٣- التأثر السلبي بالبيان لقرآني :

وهو التأثر الذي يسيء فيه الشاعر استخدام الألفاظ والتراكيب والمعاني القرآنية . كأن يضعها في غير مكانها اللائق ، أو أن يسوقها في معرض السخرية والتهكم ، أو أن يحاول - جهلاً وغروراً - محاكاة

---

(1) المائدة آية / ٣

(1) سورة يوسف آية / ٣٣ .

(2) المرجع السابق ٧٠

أسلوب القرآن الكريم ظناً منه أنه قادر على إبداع بيان يكافئ البيان القرآني العظيم ، ومثل هذه المحاولات تبوء بالإخفاق الذريع ، ولا تحظى إلا بالرفض الكامل شكلاً ومضموناً ، وقد فعل مسيلمة الكذاب ذلك ولكنه باء بسخط من الله ن ولم يلق عمله من الجماهير المؤمنة سوى الرفض الكامل .... ومن قرآن مسيلمة الذي زعمه قوله :
" والمبذرات زرعا والحاصدات حصدا والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا واللاقمات لقما ، إهالة وسمنا ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر . رفيقكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والناعي فواسوه والباغي فناوؤه ." !
وقد روى " عمرو بن العاص - في أيام جاهليته - قال : لما نزلت سورة ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر .. ﴾ فكر مسيلمة ساعة ، ثم رفع رأسه ، فقال :" ياو ياوبر ، إنما أنت إيراد وصدر ، وسائرك حفر نقر . ثم قال : كيف ترى يا عمرو؟ قال له : والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب .[١] هذه بعض افتراءات مسيلمة الكذاب على القرآن الكريم ، فهي " ضرب من الحماقة يعارض بها أوزان القرآن في تراكيبه ، ويجنح في أكثرها إلى سجع الكهان "[٢]
وهذه النزعة تسربت إلى حقل المعجم الشعري في العصر الحديث ، وأساء بعضهم عن عمد استخدام الألفاظ المقدسة في تجاريبهم الشعرية وبعضهم انزلق عن غير قصد إلى هذا المزلق الفني تقليداً منهم للنماذج المشهورة . فلفظ الجلالة والقدر والنبي والصلاة ونحو ذلك من الألفاظ التي تتسم بالقداسة الدينية ترد في دواوين بعض

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير ج/٥ ص/ ٣٢ ، ٣٣ ط/ ١ / دار الفكر بيروت
[2] تاريخ آداب العرب للرافعي ص ١٧٤، ١٧٥ .

الشعراء في غير مكانها بعيدة عن إيحائها الراسخ في وجدان الإنسان. يقول الشاعر " خليل حاوي " مسيئاً استخدام لفظ الجلالة :[1]

طـرقات الأرض مهـما تتـناءى ..
عند بابي ... ينتهـــي كل طريق
وبكوخـي يســـتريح التوأمـــان
الله والدهـــر الســـــــــحيق

- ٥ -

فن المدائح النبوية :

هو لون من ألوان الأدب الإسلامي ، الذي أذاعه التصوف ، وهو ضرب من " **الأدب الرفيع** " ؛ لأنه مديح يصدر عن عاطفة دينية مفعمة بالصدق والإخلاص لرسول الله ﷺ . والجدير بالذكر أنَّ ما يقال من المديح بعد الوفاة يسمى رثاءً ، لكنه في الرسول يسمى مدحا كأنهم لحظوا أن الرسول ﷺ موصول الحياة ، وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء . وهم يقولون : (قال حسان يرثي النبي ﷺ) ليفرقوا بين حالين من الثناء : ما كان من شاعر عاصر الرسول ، وما كان بعد موت الرسول ﷺ بخلاف ما يقع من شاعر ولد بعد وفاته ﷺ فإن الثناء عليه مديح لا رثاء ؛ لأنه لا موجب للتفرقة بين حال وحال ، ولان الرثاء يقصد به إعلان التحزن والتفجع ، على حين لا يراد بالمدائح النبوية إلا التقرب إلى الله بنشر محاسن الدين الإسلامي ،

---

[1] ديوان خليل حاوي ص/ ١٥ والأدب الإسلامي د. صابر عبد الدايم ص/ ٧١ .

والثناء على شمائل الرسول ﷺ [1] ونكتفي ببعض أبيات من قصيدة البردة للبوصيري [2] - رضي الله عنه -
وقد سماها " الكواكب الدرّية في مدح خير البرية " ، وقد حدثنا البوصيري عن سبب وضعه للبردة ، فقال : " كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ منها ما كان اقترحه عليَّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ثم اتفق بعد ذلك أن صاحبني " فالج " أبطل نصفي ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها ، واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني وكررت إنشادها ودعوت وتوسلت ونمت فرأيت النبي ﷺ فمسح وجهي بيده المباركة وألقى عليَّ بردة فانتبهت ووجدت فيَّ نهضة فقمت وخرجت من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحداً فلقيني بعض الفقراء فقال لي أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله ﷺ فقلت أيها ؟ فقال : التي أنشأتها في مرضك وذكر أولها وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله ﷺ ورأيت رسول الله ﷺ يتمايل وأعجبته وألقى على من أنشدها بردة ... وشاع المنام وكانت له أطياف في أذهان الصوفية ، فقد استحبوا أن يقرأ المرء هذا البيت :

مولاي صل وسلم دائماً أبداً ❁ على حبيبك خير الخلق كلهم

بعد كل بيت من أبيات البردة ، وذكروا أن " الغزنوي " كان يقرؤها في كل ليلة ؛ ليرى النبي في منامه ، فلم تتيسَّر له الرؤيا ، فشكا ذلك لشيخ كامل ، فقال له : لعلك لا تراعي شرائطها ! ، فقال : لا ، بل

---

[1] راجع المدائح النبوية في الأدب العربي د. زكي مبارك ص/١٧ ط/ الحلبي ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م .

[2] هو الإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج . ولد البوصيري في دلاص سنة٦٠٨ ، وتوفي بالاسكندرية سنة ٦٩٧ وله قبر مشهور في الاسكندرية يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية (راجع فوات الوفيات)

أراعيها . فراقبه الشيخ ، ثم قال لـه : إنك لا تصلي بالصلاة التي كان يصلي بها الإمام البوصيري على النبيﷺ وهي قوله :
مولاي صل وسلم دائماً أبدا ✿ على حبيبك خير الخلق كلهم

قالوا : وحكمة اختيار هذا البيت دون غيره أنه رحمه الله لما أنشأ هذه القصيدة رأى النبي في المنام ، فأنشدها بين يديه ، فكان يتمايل طرباً كتمايل الأغصان ، فلما انتهى إلى قوله : " فمبلغ العلم فيه أنه بشر " لم يقدر على تكميل البيت ، فقال له ﷺ قل : " وأنه خير خلق الله كلهم " فأدرج البوصيري هذا المصراع الذي قاله النبي في البيت المتقدم ، وجعله صلاة مكررة بعد كل بيت حرصاً على لفظ النبيﷺ [(١)]

فصول البُردة وعناصرها:

تقع البردة في اثنين وثمانين ومائة بيت ، وفي عشرة فصول ، فهي من القصائد الطوال ، وقد بدأها الشاعر بالنسيب ، ثم بالتحذير من الهوى ، ثم مدح النبيﷺ ، ثم تحدث في مولده ﷺ ، ثم في معجزاته ﷺ ، ثم في شرف القرآن ومدحه ، ثم في إسرئه ومعراجه ﷺ ، ثم في جهاده ، ثم في التوسل به ﷺ ، ثم في المناجاة .

ففي الفصل الأول : بدأ البردة بالنسيب ؛ لأنه يتصل بالشوق إلى المعالم العربية ، وكنت لمت[(٢)] البوصيري على هذا في كتاب " الموازنة بين الشعراء " ثم تبينت أنه اختار تلك المواطن لصلتها بمولد الرسول ﷺ وخاصة إذا لا حظنا أن النسيب لم يقصد لذاته .. وإنما هو نسيب وقع موقع التمهيد لقصيدة دينية ، ولولا حرص الشاعر على متابعة القدماء في افتتاح القصائد بالنسيب لما كان للتغزل في مثل هذه القصيدة مكان .

---

(1) راجع مقدمة القصيدة تحت عنوان تنبيه ص/١ ط/١ القاهرة .
(2) راجع المدائح النبوية ص/ ١٥١ وما بعدها .

ومع أن الشاعر كان فارغ القلب من الصبوات الحسية ، فقد قارب الإجادة في التعبير عن لوعة الوجد ، حين قال :

أيحسب الصبُّ أن الحب منكتمٌ ما بين منسجمٍ منه ومضطرمِ
لولا الهوى لم تُرق دمعا على طلل ولا أرقتَ لذِكر البان والعلَم
فكيف تُنكر حباً بعد ما شهدت به عليك عُدول الدمع والسقمِ
نعم سرى طيف من أهوى فأرّقني والحب يعترض اللذات بالألمِ
يا لائمي في الهوى العذري معذرةً مني إليك ولو أنصفت لم تلُمِ

وفي الفصل الثاني :حذّر من هوى النفس ، حيث ابتدأ الشاعر بالكلام عن عذل الشيب - وفيه دليل على أن الشاعر نظم البردة في أيام الاكتهال - وأبياته في هذا المعنى جيدة ، ومنها قوله :

إني اتهمتُ نصيح الشيب في عذلٍ والشيب أبعد في نصح عن التهمِ
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها إن الطّعام يقوي شهوة النّهمِ
والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطمِ
كم حسّنت لذةً للمرء قاتلةً من حيث لم يدرِ أن السم في الدسم
وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النُصح فاتّهمِ
ولا تطع منهما خصماً ولا حكما فأنت عرف كيد الخصم والحكم
أستغفر الله من قولٍ بلا عملٍ لقد نسبتُ به نسلاً لذي عُقُمِ

ففي الأبيات نظرات في سياسة النفس على جانب من الدقة ، كالتحذير من دسائس الشبع والجوع ، وتشبيه النفس بالطفل " إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم " وفي الأبيات شطرات كثيرة تجري مجرى الأمثال ، كقوله : والشيب أبعد في نصح عن التهم " " إن الطعام يقوي شهوة النهم " ، " إن الهوى ما تولى يصْم أو يصِم"

وفي الفصل الثالث : مدح الرسولﷺ : فتحدث البوصيري عن تهجده ﷺ فذكر أنه أدام قيام الليل حتى تورمت قدماه ، وتحدث عن إيثاره الجوع حتى أنه ﷺ كان يشد أحشائه من السغب ، وعن زهده ﷺ حتى أن جبال الذهب راودته عن نفسه فاستعصم ، فمحمد ﷺ سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم ، وأنه الآمر الناهي ، وأنه لا أحد أبرَّ منه في قول : (لا) و(نعم) وأنه مرجو الشفاعة ، وأن المستمسكين به مستمسكون بحبل غير منفصم ، وأنه فاق النبيين في الخَلق والخُلق ، ولم يدانوه في علم ولا كرم ، ويمعن في ذلك ، فيقول :

محمد سيد الكونين والثقليـ ـن والفريقين من عُرب ومن عجم
نبيُّنا الآمرُ الناهي فلا أحدٌ أبرَّ في قول لا منه ولا **نعـَمِ**
هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هولٍ من الأهوال مُقتحم
فاق النبيين في خَلق وفي خُلق ولم يدانوه في علم ولا كرمِ
وكلهم من رسول الله ملتمسٌ غرَفاً من البحر أو رشفاً من الدِّيم

وانظر إلى هذه الوثبة الشعرية في تصوير شخصية الرسولﷺ :

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرفٍ وانسب إلى قدره ماشئت من عظمِ
أعيا الورى فهم معناه فليس يرى للقُرب والبُعد منه غير منفحمِ
كالشمس تظهر للعينين من بُعد صغيرةً وتكلُّ الطرفَ من أمَمِ
وكيف يدركُ في الدنيا حقيقته قومٌ نيامٌ تسلَّوا عنه بالحُلم؟
فمبلغُ العِلم فيه أنَّه بشرٌ وأنَّه خير خلق الله كلِّهمِ
أكرم بخَلق نبيٍ زانه خُلُقٌ بالحُسن مشتملٍ بالبشر متَّسمِ

هذه أبيات في غاية من القوة ، وإن كانت أخيلتها مقتبسة من معان قديمة ، فقوله مثلاً:

كأنما اللؤلؤ المكنون في صدفٍ من مَعْدِنَي منطقٍ منه ومُلتثِم
من المعاني التي أكثر منها الشعراء ، وقد نقلها البوصيري من النسيب إلى المديح .

وفي الفصل الرابع : تكلم عن مولده ﷺ ، ذكر البوصيري أن إيوان كسرى انصدع ، وأن نار الفرس خمدت ، وأن بحيرة ساوة غاصت وأن الشهب انقضت فوق الأصنام .. وأغلب الظن أن هذه الأخبار من وضع القصاص[1] الذين أرادوا أن يصوروا مولد الرسول بالصور التي أثرت عن أنبياء الهنود وقد أكثر مؤرخو المولد من هذه الأخبار . يقول البوصيري :

وبات إيوانُ كسرى وهو منصدعٌ كشمل أصحاب كسرى غير ملتئمِ
والنار خامدة الأنفاس من أسفٍ عليه والنهر ساهي العين من سَدَم
وساء ساوةَ أن غاصت بحيرتها وردَّ واردُها بالغيظ حين ظمي
والجن تهتف والأنوار ساطعة والحقُ يظهَر من معنىً ومن كلِم

وفي الفصل الخامس : تحدث عن معجزات ﷺ ، فذكر سجود الأشجار للرسول ومشيها إليه ، وسير الغمامة أنى سار لتقيَه حرَّ الهجير ، وما صنع الحمام والعنكبوت بالغار ، وكيف كان لمس راحته يبرئ المريض ويشفي من الجنونَ ، وكيف كانت دعوته ترسل الأمطار في السنة الشهباء ، ومن ذلك قوله :

جاءت لدعوته الأشجار ساجدةً تمشي إليه على ساق بلا قدم
مثلَ الغمامةِ أنى سار سائرةً تقيه حر وطيس للهجير حمي
أقسمت بالقمر المنشق إنَّ لـه من قلبه نِسبةً مبرورةَ القسَم

---
[1] د. زكي مبارك ص/ ١٥٦ .

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوتَ على
خيـر البريـّة لم تنسُج ولم تحُم
وقاية الله أغنت عن مُضاعفة ٍ من الدروع وعن عالٍ من الأُطُم ِ

وفي الفصل السادس : تكلم عن القرآن ، فقال : إنه ظهر " ظهور نار القرى ليلاً على علم " وأن المديح لا يتطاول إلى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم ، وأن آياته :

لم تقترن بزمان ٍ وهي تخبرنا عن المعــاد وعن عاد ٍ وعن إرم ِ

وأنها :

دامت لدينا ففاقت كل معجزة ٍ من النبــيّين إذ جاءت ولم تــدُم ِ

وهذا أجمل ما يوصف به القرآن ، فهو المعجزة الباقية ، وهو أيضاً المعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل ، ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين !

والمعاني الشعرية قليلة فيما وصف البوصيري به آيَ القرآن ، ومع ذلك نستجيد له هذين البيتين :

لا تعجبن لحسود راح ينكرها تجاهلا وهو عين الحاذق الفهم ِ
فالعينُ تنكر ضوء الشمس من رمد ويـنـكر الفمُ طعم الماء من سقم ِ

وفي الفصل السابع : تحدث عن الإسراء بآيات خفيفة الروح منها :

يا خير من يمّم العافون ساحته سعياً وفـوق متون الأينُق الرُّسُم ِ
ومن هو الآية الكبرى لمعتبرٍ ومن هــو النّعمة العظمى لمُغتنم
سريت من حرم ليلاً إلى حرم كما سرى البدر في داج ٍ من الظُلَم
وبتَّ ترقى إلى أنْ نلت منزلة من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم

ثم وقع في أبيات لم يصقلها الذوق حين قال :

وقدَّمتك جميعُ الأنبياء بها ... والرسلِ تقديم مخدومٍ على خدمِ
وأنت تخترق السبع الطباق بهم ... في موكب كنت فيه صاحب العلم
حتى إذا لم تدع شأواً لمستبقٍ ... من الدنوّ ولا مرقى لمستنم
خفضت كل مقامٍ بالإضافة إذ ... نوديت بالرفع مثل المفرد العلم

والبيت الأخير ثقيل أضرت به التورية النحوية .[1]

وفي الفصل الثامن : تكلم عن الجهاد فوصف النبي وأصحابه بالبأس والقوة ، وبين أن الأعداء سقطوا من صدمة الرعب والفزع :

راعت قلوب العدا أنباءُ بعثته ... كنبأةٍ أجفلت غُفلاً من الغنمِ
ما زال يلقاهمُ في كل معترك ... حتى حكوا بالقنا لحماً على وضمِ
ودوا الفرار فكادوا يغبطون به ... أشلاء شالت مع العقبان والرَّخم
تمضي الليالي ولا يدرون عدتها ... ما لم تكن من ليالي الأشهر الحرمِ

ثم يصف جند الرسول ﷺ وصفاً جيداً يظهر فيه قوة السبك روعة الخيال ، فيقول :

هم الجبال فسلْ عنهم مصَادِمَهُم ... ماذا رأى منهمُ في كل مصطدم
طارت قلوب العِدا من بأسهمْ فرقا ... فما تُفرِّق بين البَهمِ والبُهَم
ومن تكن برسول الله نصرته ... إن تلقه الأسد في آجامها تجِم
أحلَّ أمته في حرز ملَّته ... كالليث حلَّ مع الأشبال في أجَم

وفي الفصل التاسع : تظهر نفحات التصوُّف ظهوراً قوياً حين يتوسل برسول الله ﷺ فيقول :

خدمتُه بمديحٍ أستقيل به ... ذنوبَ عمرٍ مضى في الشعر والخدم
فإن لي ذمةً منه بتسميتي ... محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم

---

[1] المدائح النبوية في الأدب العربي ص/ ١٥٨ .

إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي ... فضـلاً وإلا فقـُل يا زلة القَدَم

وفي الفصل العاشر: تكون المناجاة وعرض الحاجات ، ومنها قوله :

يا أكرمَ الخلقِ مالـي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العممِ
ولن يضيق رسولَ الله جاهك بي ... إذا الكريم تحلّـى باسـمِ منتقِمِ
فإنّ من جـودكَ الدنيا وضـرّتها ... ومن علومك علمَ اللـوح والقلـمِ

وحين يخاطب نفسه ، ويدعوا ربه ، فيقول :

يا نفس لا تقنطي من زلةٍ عظمت ... إن الكبائـر في الغفران كاللمم
لعلَّ رحمة ربـي حين يقسمـها ... تأتي على حسب العصيان في القِسَم
يا رب بالمصطفى بلّغ مقاصدنا ... واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم

****

- ٧ -

أثر البردة في لغة القرآن وقلوب المسلمين :

كان للبردة أثر عظيم يمكن حصره في : خمس نواح .[١]
في الجماهير الشعبية ، وفي التأليف ، وفي الدرس ، وفي الشعر والشعراء ، وفي البديعيات .

١- أما أثرها في الجماهير: فواضح جدا ، ونستطيع الجزم بأن الجماهير في مختلف الأقطار الإسلامية لم تحفظ قصيدة مطولة كما حفظت البردة فقد كانت من الأوراد تقرأ في الصباح ، وتقرأ في

---

[1] راجع المدائح النبوية في الأدب العربي ص/ ١٦١ وما بعدها .

المساء وكنت أرى لها مجلساً يعقد في ضريح الحسين بعد صلاة الفجر من كل يوم جمعة وكان لذلك المجلس رهبة تأخذ بمجامع القلوب ، والذي يزور ساحة المولد النبوي بالقاهرة يرى المئات يرتلونها في هيبة وخشوع ، وكثير من الناس كانوا يجمعون الأطفال لقراءتها في الجنازات ... ومن أدلة الذيوع ، ما نراه من تعدد الطبعات ، فقد طبعت في فينًا والأستانة ومكة وبمباى ، وطبعت في القاهرة نحو خمسين مرة !!

وللبردة أثر آخر : فمنها تلقى الناس طوائف من الألفاظ والتعبير غنيت بها لغة التخاطب ، ومنها عرفوا أبواباً من السيرة .. واستطاع البوصيري بتصوفه أن يؤثر في الأدب والأخلاق في جماهير المسلمين !

٢- وأما أثرها في التأليف : فيظهر فيما وضع لها من الشروح ، فقد شرحها ابن الصائغ ، ت سنة ٧٧٦ هـ وشرحها علي بن محمد القلصَاي ، ت ٨٩١ هـ وشهاب الدين بن العماد ت ٨٠٨ هـ والشيخ خالد الأزهري ت ٩٠٥ هـ وعلاء الدين البسطامي ت ٨٧٥ وغيرهم كثيرون ، جاوزوا العشرين شارحا ، وهذه الشروح مجموعة نفيسة تزخر بالفقرات اللغوية ، والأدبية ، والتاريخية ، وكلها ترجع بالفضل إلى تصوف ذلك الشاعر المجيد .!

٣- وأما أثرها في الدرس : فيتمثل في تلك العناية التي كان يوجهها العلماء الأزهريون إلى عقد الدروس في يومي الخميس والجمعة لدراسة حاشية الباجوري على البردة ، وهي دروس كانت تتلقها جماهير من الطلاب . وإنما كانوا يتخيرون يومي الخميس والجمعة ؛ لأن مثل هذا الدرس لم يكن من المقررات ، فكانوا يتخيرون له أوقات الفراغ .

٤- أما أثر البردة في الشعر والشعراء : فعظيم جداً ، فقد ضمَّنوها وشطروها وخمسوها وسبعوها وعشروها وعارضوها .. ويمكن

القول بأن جميع المدائح النبوية التي قيلت بعد البوصيري على الوزن والقافية كان أصحابها مسوقين بالروح البوصيرية ، ولم يمض عصر إلا وللبردة فيه طراز . وأشهر من عارضوها أخيراً " البارودي " الذي سمى قصيدته : " كشف الغمة في مدح سيد الأمة " وعدد أبيات هذه القصيدة أربعمائة وسبعة وأربعون بيتاً والمطلع :

يا رائدَ البرق يَمِّم دارة العَـلَم واحْدُ الغمامَ إلى حيٍّ بذي سَلَـم

كما عارضها " أحمد شوقي " وسمى قصيدته " نهج البردة " وقد نظمها في سنة ١٣٢٧هـ ومطلعها :

ريم على القاع بين البان والعَـلم أحلَّ سفك دمي في الأشهر الحرم

كما عارضها الشيخ " أحمد الحملاوي " في قصيدة سماها " منهاج البردة " نظمها في طريقه إلى الحج ، ومطلعها :

يا غافر الذنب من جود ومن كرم وقابل التوب من جان ومجترم
ومسبلَ الستر إحسانـاً ومرحمـة على العفاة بفيض الفضل والكرم

٥ ـ وأما البديعيات : فبعد أن توفي البوصيري بسنتين ولد أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف " بابن جابر الأندلسي " وكان ضريرا ، ولكن لم تمنعه تلك العاهة القاسية من الرحلة إلى المشرق ، فدخل مصر والشام ، واستوطن حلب ، ثم رجع إلى الأندلس ، فتوفي في ألبيرة في جمادى الآخرة سنة ٧٨٠ هـ وقد افتتن ابن جابر بقصيدة البردة وظهرَ أثرها في شعره ، كقوله :

يا أهل طيبة في مغنا كمو قمـر يهدي إلى كل محمود من الطرق
كالغيث في كرم والليث في حرم والبدر في أفق والزهر في خُلق

فقد شغل نفسه بمعارضة البردة ، ولكن أي معارضة ؟ لقد ابتكر فناً جديداً في البديعيات ، وذلك أن تكون القصيدة في مدح الرسول ﷺ ولكن كل بيت من أبياتها يشير إلى فن من فنون البديع ، ومطلع هذه البديعية :

بطيبةَ أنزل ويمّم سيّدَ الأمم   وانشر له المدح وانثر أطيب الكَلِم

وقد رأى معاصرو ابن جابر قيمة هذا الفن الجديد ، فتقدم صديقه" أبو جعفر الألبيري " لشرح بديعيته ، واعترف له بالسبق .. وشرحها أبو جعفر أحمد بن يوسف الغرناطي الأندلسي ت سنة ٧٧٩هـ واختصر هذا الشرح محمد بن إبراهيم البشتكي ت سنة ٨٣٠ هـ .
وفي عصر ابن جابر وضع " صفي الدين الحلي " ت سنة ٧٥٠هـ قصيدة سماها " الكفاية البديعية في المدائح النبوية " وأنشأ عز الدين الموصلي ت سنة ٧٨٩هـ قصيدة بديعية عقبها بشرح سماه " التوصل بالبديع إلى التوسل بالشفيع " وجاء ابن المقري ت سنة ٨٣٧ هـ فأنشأ بديعته " الجواهر اللامعة في تجنيس الفرائد الجامعة للمعاني الرائعة" ثم جاء السيوطي فعارض ابن حجة الحموي ببديعية سماها " نظم البديع في مدح خير شفيع " ثم اندفع الناس في هذا الفن : فللسيدة عفيسة الباعونية بديعيتان ، ولأبي الوفاء بن عمر الفرضي بديعية وللسيد عبد الهادي الإبياري بديعية وللشيخ طاهر الجزائري .. وغير ذلك كثير وجميع هذه البديعيات محفوظة بدار الكتب المصرية ، وقد تكون هناك بديعيات لم تعرفها دار الكتب ..

أرأيت كيف أثرت قصيدة البردة في اللغة العربية ، وكيف ساد سلطانها بين الناس على مدى هذه الأزمان ؟ إن الإخلاص هو الذي مكن البوصيرى من ناصية المجد الأدبي وهو الذي رفعه إلى منزلة الخلود.

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الشعر مع الله والذَّرَّة :[1]

هذا عنوان قصيدة تمثل الشعر الإسلامي الحديث ، وعدتها ستة وتسعون بيتاً، وصاحبها يصدر عن روح التصوف ، وأسلوبها يفيض بالسلاسة والعذوبة والوضوح ، وهو يستهلها بمناجاة ربه ويطيل في تلك المناجاة إلى ما يقارب نصف القصيدة ، وفيها يقول :

بك أستجير ومن يجير سواكا ... فأجِر ضعيفاً يحتمي بحماكا
إني ضعيف أستعين على قوي ... ذنبى ومعصيتي ببعض قواكا
أذنبت ياربي وآذتني ذنو ... ب ما لها من غافرٍ إلا كا
دنياي غرتني وعفوك غرَّني ... ما حيلتي في هذه أو ذاكا
لو أن قلبي شك لم يك مؤمناً ... بكريم عفوك ما غوى وعصاكا
يا مدرك الأبصار والأبصارَ لا ... تدري له ولكنهه إدراكا
أتراك عين والعيون لها مدى ... ما جاوزته ، ولا مدى لمداكا
إن لم تكن عيني تراك فإنني ... في كل شيء أستبين علاكا
رباه هأنذا خلصت من الهوى ... واستقبل القلب الخلي هواكا
وتركت أنسي بالحياة ولهوها ... ولقيت كل الأنس في نجواكا
ونسيت حبي واعتزلت أحبتي ... ونسيت نفسي خوف أن أنساكا
أنا كنت يا ربي أسيرَ غشاوة ... رانت على قلبي فضل سناكا
واليوم يا ربي مسحت غشاوتي ... وبدأت بالقلب البصير أراكا
ياغافر الذنب العظيم وقابلاً ... للتوب قلب تائب ناجاكا
أترده وتردُّ صادق توبتي ... حاشاك ترفض تائب حاشاكا
إني أويت لكل مأوى في الحيا ... ة فما رأيت أعزَّ من مأواكا
وتلمست نفسي السبيل إلى النجا ... ة فلم تجد منجى سوى منجاكا
وبحثت عن سر السعادة جاهدا ... فوجدت هذا السر في تقواكا
فليرض عني الناس أو فليسخطوا ... أنا لم أعد أسعى لغير رضاكا

---

[1] لفضيلة الشيخ إبراهيم علي بديوي من علماء الاسكندرية

وهو يدعو الإنسان للتأمل في ملكوت الله ، فيقول :

والكون مشحون بأســـرار إذا   حاولت تفسيراً لـها أعيـــاكا
قل للطبيب تخطفته يد الــردى   يا شـافي الأمراض : من أرداكـا؟
قل للمريض نجا وعوفي بعـدما   عجزت فنون الطب من عـافـاكا؟
قل للصحيح يموت لا من علـــةٍ   من بالمنـايا يا صحيح دهـاكا؟
قل للبصير وكان يحذر حفـــرةً   فهوى بها من ذا الذي أهــواكـا؟
بل سائل الأعمى خطا بين الزحا   م بلا اصطدام : من يقود خطاكا؟
قل للجنين يعيش معـزولاً بـــلا   راعٍ ومرعى : ما الذي يرعاكا؟
وإذا ترى الثعبـــان ينفث سُمَّه   فاسأله من ذا بالسموم حشـــاكا؟
واسأله كيف تعيش ياثعبـــان أو   تحيـــا ، وهذا السم يمـلأ فـاكـا؟
وأسأل بطون النحل كيف تقاطرت   شهداً وقل للشــــهد من حلاكـا ؟
بل سائل اللبن المصفي كـــان بـــ   ـين دمٍ وفرث ما الذي صفاكا ؟

ثم ينتقل إلى غرض القصيدة ، وهو التحذير من غرور الإنسان بما يراه من علوم مادية حديثه تنسيه خالقه سبحانه ، فيقول :

يا رب هذا العصر ألحـد عندما   سخَّرت يا ربـي لـه دنياكـا
علمته من علمك النـووي مـــا   علَّمته فإذا بـــه عـاداكــا
ما كاد يطلق للعلا صاروخــــه   حتـى أشـاح بوجـهه وقـلاكـا
واغتر حتى ظن أن الكون فـــي   يُمنى بني الإنسان لا يمناكا
أو ما درى الإنسان أن جميع ما   وصلتْ إليــه يداه من نعمـاكا ؟
أو ما درى الإنسان أنك لو أرد   تَ لظلَّت الذراتُ في مخباكـا ؟
يأيـها الإنســان مهـلاً واتَّئِد   واشكر لربك فضل ما أولاكا
واســجد لمولاك القدير فإنَّـما   مستحدثات العلـم من مـولاكا
الله مـا زك دون ســائر خلقه   وبنعمة العقـل البصـير حباكا
إن النَّـواة والاكترونـــات التي   تجري براهـا الله حـين بـراكا

مـا كنت تقــوى أن تفتت ذرة   منـهن لـولا الله قـد قـوَّاكـا
والعقـل لـيس بمـدرك شيئا إذا   ما الله لم يكتب لـه الإدراكـا
يأيها الإنسـان مهـــلاً ما الذي   بالله جلَّ جلالـــه أغـــراكـا ؟
حاذر إذا تغـزو الفضـــاءَ فربما   ثأر الفضـــاءُ لنفســـه فغزاكـا
اغز الفضاء ولا تكـنْ مستعمراً   أو مســتـغلا باغياً ســـفـَّاكـا
إياك أن ترقى بالاسـتعمـار في   حـرم السمـــوات العـُلا إيـاكـا
إن السموات العلا حــرم طهو   رٌ يحــرقُ المستعمـرَ الأفـَّاكـا
اغز الفضاء ودع كـواكبه سـوا   بحَ إن في تعـويقـهـن هلاكـــا
إن الكواكب سـوف تفقد رشدها   وتحطم الأبـراج والأفـلاكـــا
والجاذبية سـوف يفســد أمرها   وتسيء عقبـاها إلى عقباكـــا
ولسوف تعـلم أن في هـذا قيـا   م الساعة الكبرى هنا وهناكـــا
أنا لا أثبـِّط من جهود العلـم أو   أنا في طريقك أغرس الأشواكـا
لكننـــي لك ناصـح فالـعـلـم إن   أخطأت في تسـخيره أفنـاكـــا

وهو يشير إلى مهمة العلم فيقول:-

سخِّر نشاط العلم في حقل الرخا   ء يصـغ من الذهب النضار ثراكـا
سخِّـره يمـلأ بالســلام وبالتعـا   ونِ عـالـماً متناحـراً سفاكـــا
وادفع به شـرَّ الحيـاةِ وسوءها   وامســح بنعـمى نُوره بؤســاكـا
العلم إحيـــاء وإنشـــاء وليـ   سَ العـلـمُ تدمـيراً ولا إهـلاكـا
فإذا أردت العـلـم منـحرفا فمـا   أشـــقى الحيـاة بـه ومـا أشقاكا

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الفصل الثالث :

في الإبداع القصصي



من أدب طالب العلم كما صوره القرآن :

كان العلم الكلمة الأولى التي جاء بها الوحي يوم التقى نور السماء بأرض الصحراء ، فنزل أمين الوحي يقول للنبي محمد ﷺ

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ [1] ولم يقل اقرأ باسم (ديكارت) ولا باسم (أفلاطون) ولا باسم (أرسطو) ولا باسم (فيثاغورث) ، وقد كان هؤلاء أساتذة للبشر ! وإنما حدد القرآن صفتين أساسيتين لمن نتعلم باسمه وهما الربوبية والخلق الأولى: تعني التربية والرعاية والعناية بما يليق بجلاله ، والأخرى: تعني أنه ليس أحد من هؤلاء خالقاً! أما الذي انفرد بخلق الخلية الحية التي كونت الأنسجة والأعضاء والأجهزة والذاكرة إنما هو ربك الذي ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾![2]

هذه بداية المعرفة التي يجب أن يستفتح بها طالب العلم طريقه فإن علم هذا تأدَّب مع الذي﴿ علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [3]

وقد ذكر القرآن الكريم قصة موسى مع سيدنا الخضر - عليهما السلام لنأخذ منها درساً عملياً لطالب العلم ، حوى كثيراً من الآداب علي لسان "موسى" - عليه السلام - ذلكم لما رأت اليهود نبيهم "موسى" يكلم ربه دون واسطة في كل أمر ، فسألته ، هل على وجه الأرض من هو أعلم منك ؟ ويخبر الله نبيه " موسى " أن عبداً صالحاً عند مجمع البحرين [4]هو أعلم منك ، فيشتاق أن يذهب إلي

---

(1) سورة العلق آية /١

(2) سورة العلق آية /٢

(3) سورة العلق آية/٥

(4) هو ملتقى بحر الروم ببحر القلزم أي البحر الأبيض والبحر الأحمر ومجمعهما مكان التقائهما في منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح أو أنه مجمع خليجي العقبة والسويس في

هناك ؛ لأن العلم يؤتى إليه ولا يأتي هو إلى الناس ، فقطع موسى البوادي والقفار ، وطوى الأرض تحت قدميه طياً ،هو وفتاه حتى بلغ بهما الجهد والجوع ﴿ فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ (الكهف آية /٦٢) ولعل الحكمة من هذا النصب أن يشعر طالب العلم بفضله ، وأن يبذل المزيد من أجله ، وفي هذا يقول النبي محمد ﷺ " من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة ، وأن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وأن العالم ليستغفرُ له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء ، وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وأن العلماء ورثة الأنبياء ، وأن الأنبياء لم يُورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم " !

لهذا واصل نبي الله "موسى" السير إلى مجمع البحرين فوجد هناك عبداً صالحا[١] فتقدم إليه في تواضع جم ، راجياً أن يقبله تلميذاً ، وراح يستأذنه قائلاً : ﴿ هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا ﴾ (الكهف آية / ٦٦) فموسى يلتزم بخلق طالب العلم المثالي ، فيتجرد من مظهره الاجتماعي والمادي ليصبح مجرد تلميذ عادي ، يعرض نفسه على الأستاذ بصيغة السؤال وبأقصى ما يحمل الأسلوب من الأدب ﴿ هل أتبعك ﴾ إنه لا يُلزم أستاذه ولا يُلح عليه ، وهو لا يجعل التماسه مجرد تلمذة ، وإنما جعلها تبعية مطلقة (هل أسير وراءك تابعا ؟) إن الذي يستأذن ليتعلم هو حاصل على درجة النبوة بتقدير مرتبة الشرف ؛ لأنه من أولى العزم الخمسة [٢] وعلى الرغم من

البحر الأحمر فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر (راجع في ظلال القرآن - سيد قطب ج٤ /٢٢٧٨ ط/ دار الشروق)

[1] هو الخضر - عليه السلام - ولم يصرح القرآن باسمه وإنما ذكره أكثر المفسرين. والخضر بفتح الخاء وكسر الضاد .

[2] وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وعلى رأسهم محمد عليه وعلى الأنبياء جميعا أفضل الصلاة وأزكى السلام .

ذلك كله يقول له الخضر : ﴿ إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾ (الكهف آية /٦٧) هو لم يقل : إنك لن تصبر ، وإنما نفى استطاعة "موسى" أن يصبر وبالتالي انتفى الصبر ، وقال: (معي) يعني أن" موسى" يمكنه أن يصبر على العلم مع غيره ، أما مع الخضر فلا يستطيع ، وقال :(لن) ولم يقل : (لا) ليؤكد النفي على التأبيد !! ومع هذا كله يجيبه " موسى " في أدب طالب العلم ، فيقـــول :

﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ (الكهف آية / ٦٩) ، ثم يضيف كلمة في غاية الجمال والجلال والكمال ، فيقول: ﴿ ولا أعصي لك أمرا ﴾ (الكهف آية / ٦٩)

هذه هي العلاقة التي يجب أن تكون بين الطالب وأستاذه كما صورها القرآن الكريم ، وفي هذا يقول النبي محمد ﷺ تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه " ؛ ولهذا أكد موسى تواضعه بقوله : ﴿ ولا أعصي لك أمرا ﴾ وكلمة " أمراً " نكرة وقعت في سياق النفي ، فأفادت العموم أي لا أعصي لك أي أمر ! ومع هذه الطاعة الكاملة من التلميذ رفض الأستاذ قبوله إلا بشرط وهو ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ (الكهف /٧٠)

ولربما يُظن بالأستاذ تعسفاً مع هذا الطالب المتواضع ولكن الخضر يوضح حقيقة ما يحمله من علم يتلقاه من قبل الله مباشرة ، فهو يحمل طابع الغيب ، أي أنه علم يحتاج إلى الأناة والصبر ولذلك يقول لموسى : ﴿ وكيف تصبر على ما لم تُحط به خبرا ﴾ ؟ (الكهف آية / ٦٨) ولهذا يوافق " موسى " على هذا الشرط ، ولكن هذا التلميذ ، <u>في الدرس الأول</u> : الذي أخذه من أستاذه : يُصاب بصدمة ، ينسى معها الشرط ويعترض ؛ لما وجده يخرق سفينة أبرياء لم يقدموا لهما سوءاً ، إنه هنا لا يقابل إحسان أهل السفينة بالإحسان ، إنه فعل ما

يُصادم العقل ويُحيِّره ! وموسى يرى خطراً داهماً على جميع ركاب السفينة ؛ لهذا اندفع ـ بطبعه ـ إلى النهي عن المنكر وهو ما يجب عليه إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ناسياً الشرط الذي قطعه على نفسه ، فيقول لأستاذه ﴿ لقد جئت شيئاً إمرا ﴾ (الكهف/ ٧١) وكان من حق أستاذه أن يغضب أو أن يبادله عنفاً في القول ولكنه تجاهل ما وجه إلى شخصه ، ولم يناقشه سوى الإخلال بمنهج التعليم المتفق عليه ، فاكتفى بقوله: ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾ ؟ (الكهف /٧٢) وسرعان ما راجع موسى نفسه وتذكر أن الخضر رجل غير عادي فهو يتلقى من ربه ، كما نظر في وجهه فرآه مستريح البال ، هادئ النفس لا يبدو عليه ما يبدو على مرتكبي الجرائم ـ من قلق واضطراب ومنازعة الضمير ! ، فيعتذ ر له قائلاً: ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا ﴾ (الكهف آية /٧٣)

ونلمح في أدب الاعتذار النبوي أن موسى لم يكابر في الحق وقد حمَّل اعتذاره شيئين:

أحدهما : بيان السبب ، وهو النسيان ، وإن النفوس لم تكلف فوق طاقتها ! والشيء الآخر: رجاء الرفق به ، ويقبل الخضر اعتذاره! **وفي الدرس الثاني**: يرى أستاذه يقتل غلاماً بريئاً بغير نفس هنا تتكرر الصدمة فينسى الشرط ، ويتكرر إخلاله بالاتفاق ، وعدوانه علي معلمه فيقول له : ﴿ لقد جئت شيئاً نكرا ﴾ (الكهف آية/ ٧٤) والتعدي هنا علي الأستاذ يحمل أكثر من جانب : فموسى قد أخل بالاتفاق ، وقد اتهم أستاذه صراحة بالشروع في أكثر من جريمة بشعة ومن حق أستاذه أن يغضب ، أو أن يبادله عنفاً في القول ولكنه تجاهل ما وجه إلي شخصه ، ولم يناقشه سوي الإخلال بمنهج التعليم فاكتفى بقوله : ﴿ ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾ ؟

(الكهف/٧٥) ولأن وقع الأحداث كان غريباً ، عذره الخضر ثانية رفقاً به !

وفي الدرس الثالث : يرى " موسى " الخضر وهو يقابل الشحّ بما يشبه التبذير، إنه يبني جداراً لأناس بخلاء ، أبَو أن يضيّفوهما ، فيعترض ناسياً أيضا ، ويقبل الخضر عذره ، إلا أنه العذر الأخير بعده كان الفراق ، والخضر لم يفارقه لمجرد تكرير الإخلال ، وإنما فارقه ؛ لأن " موسى" قطع على نفسه بقوله : ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنّي عُذرا ﴾ (الكهف / ٧٦) أي أعذرتني مرة بعد مرة .

ولما وصلا إلى حد الفراق لم يتركه " الخضر" على الفور ، بل أوضح له الحكمة من وراء تلك الدروس الثلاثة ، كما قصها القرآن ، فقال : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ : ﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾. ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاةً وأقرب رحما ﴾. ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا﴾ (الكهف الآيات / ٧٩ - ٨٢)

وفي نهاية المطاف جلسا على شاطئ البحر فنزل عصفور ، فالتقط قطرة ماء بمنقاره ، فقال : " الخضر" يا موسى : انظر إلى هذا الطائر إن علمي وعلمك لا يساوي إلا مثل هذه القطرة التي أخذها الطائر بمنقاره !!

يا موسى: لمتني على أنني خرقت السفينة ؛ خشية أن يغرق أهلها! أنسيت يوم ألقتك أمك في الماء ، من الذي حفظك من الغرق ؟

يا موسى : لمتني على أنني قتلتُ نفساً بغير نفس .! ألا تذكر يوم قتلت رجلاً من آل فرعون ، وقلتَ : ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي[1] ﴾ فغفر لك ؟

يا موسى : لمتني على أنني أقمت جداراً بدون أجر.! ألا تذكر يوم سقيت الأغنام لابنتي " شعيب " بغير أجر ؟ هذه ثلاثة بثلاثة !!

فالقصة درس للأمم في أدب الدرس ، وأدب الحوار ، وأدب الاعتذار ! والقصة من القصص التعليمي في القرآن ؛ فقد رجع "موسى" - عليه السلام - وهو يعلم أن الله لم يفتأ يعلم أنبياءه ألا يستغنوا عن مدده وعونه ، وألا يغتروا بما آتاهم الله من فضله .!

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

(1) القصص آية / ١٦ .

النفسية اليهودية كما صورتها آية البقرة :

- ١ -

لو وقفنا أمام سورة البقرة لوجدناها أطول سورة في القرآن ، إذ أن عدد آياتها مائتان وستة وثمانون آية ، وهي على طولها سماها الله بآية واحدة فيها ، تناولت قصة البقرة ، وما ذلك - والله أعلم - إلا لأن حادث البقرة أهم أحداثها وأكثرها عطاءاً ، وفيه كشف هام عن نفسية اليهود ، تلك النفسية المعقدة ، التي قتّلت الأنبياء ودوّخت المصلحين والزعماء ! والقصة - كما رواها المفسرون - هي قصة رجل من أغنياء اليهود يدعى (عاميل) لم ينجب ، وله أبناء عم ، هم الذين سيرثونه بعد موته ، ولكن أحدهم تعجّل موته ، فقتله ، ثم حمل جثته إلى مكان بعيد فرماها ، ثم أصبح يطلب الثأر ممن كانت أمام بيته ! وأصبح اليهود يتنازعون ، فهذا يتهم هذا بالقتل وذاك ينفي عن ذاك ولا دليل . فقال بعضهم : إلام نختلف ، وبيننا " موسى " ؟ فذهبوا إلى موسى لعله يستطيع أن يعرف القاتل ، ولم يرفع موسى القضية إلى مجلس من المجالس ولا إلى واحد من البشر ، وإنما عرض القضية على من يعلم السر وأخفى ، فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة ، فقال لهم "موسى " ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ [١] ولننظر كيف تقابل اليهود أمر السماء ؟ هذا أمر من الله وليس من "موسى" وهو أمر صريح واضح لا يحتاج إلى مذكرة تفسيرية ، وهو أمر مؤكد ب(إنَّ) والجملة الإسمية ، ومع ذلك كله ، قالوا أتتخذنا هزوا﴾ [٢] أي أتهزأ بنا ؟ ما علاقة القاتل بذبح بقرة ؟ إنه أمر عجيب قال "موسى " : هذا أمر الله ، ولله في ذلك حكمة ، يجب أن نُسلّم بها !.

---

(1) سورة البقرة آية / ٦٧

(2) البقرة آية / ٦٧

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾[1] أي ما سنُّها ؟

ولننظر إلى جفاء العبارة في قولهم " ربك " كأن الله ربُّ موسى دونهم ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ﴾ [2] أي هي بقرة متوسطة السن لا كبيرة مسنة ولا صغيرة ، ثم أضافت الآية أمراً في غاية الحزم ، فقالت ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ ولكن هل قاموا فذبحوا ؟ لا والله ، بل عادوا للجدال والمراوغة ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ﴾ ![3] إن الله لم يشترط للبقرة سناً ولا لوناً ، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة لكفتهم ، وفي الحديث عنه ﷺ ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم ! [4] فهم الذين سألوا عن سنها ، فزادهم الله شرطا وهم الذين سألوا عن لونها ، فزادهم الله شرطا آخر ، فقال :﴿ بقرة صفراءُ فاقع لونها تسرُّ الناظرين ﴾[5] وكان عليهم بعد ذلك أن يكتفوا بالأسئلة ، وأن يذبحوا أي بقرة صفراء ولكنهم عادوا فسألوا﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا ﴾[6] أي أهي بقرة سائمة أم عاملة في الأرض والحرث ؟ قال الله﴿ إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها ﴾ [7] أي هي بقرة سائمة لا تعمل في محراث يثير الأرض ، ولا تعلق في ساقية تسقي الزرع " مسلمة" خالية من العيوب " لا شية فيها " أي لا لون آخر فيها غير اللون الأصفر !! وهكذا كلما كثرت الأسئلة كثرت الشروط وكلما كثرت الشروط قلَّ الطلب المشروط !

---

(1) البقرة آية /٦٨
(2) البقرة آية / ٦٨
(3) البقرة آية /٦٩
(4) فتح الباري ج/ ص/ ٤٤٠ .
(5) البقرة آية / ٦٩
(6) البقرة آية / ٧٠
(7) البقرة آية / ٧١

والعجيب ! أنهم أطالوا هذه الأسئلة وهذا الجدال والقتيل ما يزال بين أيديهم لم يُدفن ، إلى أن عثروا على تلك البقرة التي تحققت فيها تلك الشروط عند أرملة مات عنها زوجها فأبت أن تتزوج بغيره ، وقامت على تربية أولادها [١] عندها وجدوا تلك البقرة ، ولكن المرأة أبت أن تبيعها إلا بملء جلدها ذهبا ! واضطروا لشرائها ، إذ لا يوجد أمامهم سواها ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ [٢] لغلاء ثمنها أو خشية فضيحة القاتل أمام الناس !!

وقبل أن نكمل القصة ، نقف قليلاً على بيت تلك الأرملة التي رتَّب الله لسعادة أبنائها فما قصتها هي الأخرى ؟ ولماذا حددت ثمنها بملء جلدها ذهبا قولاً واحداً ؟

لقد ورد أن زوجها كان فقيراً ومن الصالحين ولا يمتلك أكثر من عجلة صغيرة ، فلما أحس بدنو أجله أخذها في مكان يدعى الغيطة ، وقال : " اللهم أنت تعلم أني لا أملك غيرها ، وليس عندي من يعول أهلي من بعدي ، اللهم إني أستودعك هذه العجلة لابني حتى يكبر وأنت لا تضيع ودائعك ، فلما مات ظلت العجلة ترعى سائمة لا يستطيع أحد أن يمسها بسوء ، وكبر ابنه وكان صالحا باراً بوالدته ، فكان يقسِّم الليل ثلاثة أقسام ، يجلس عند رأس أمه ثلث الليل ثم ينام ثلثه ثم يقوم ثلثه ليصلي ، أما النهار ، فكان فيه يحتطب من الغابات ليبيعه في السوق ، كل يوم ، وكان يقسم رزقه ثلاثة أقسام : قسماً لأمه ، والثاني يأكل منه ، والثالث يتصدق به كل يوم .

---

[1] مثل هذه المرأة يقول فيها النبي محمد ﷺ " أول من يهُزُّ حلق الجنة أنا ، فإذا بامرأة تزاحمني على باب الجنة تريد أن تدخل قبلي ، فقلت من هذه يا جبريل ؟ قال : يا رسول الله إنها امرأة مات زوجها وترك لها أولاداً يتامى فأبت أن تتزوج حتى لا تضيّع حقوق اليتامى".
(رواه أبو يعلى والطبراني ، وفي مكاشفة القلوب للغزالي ط/١ القاهرة ص٢٧٦)

[2] البقرة آية /٧١

قالت أمه : يا بني إن أباك ترك لك عجلة استودعها الله في غيطة كذا فانطلق وادعها بإله إبراهيم وإسحاق أن يردَّها عليك ، وهي صفراء يخرج من جلدها كشعاع الشمس ، فذهب الابن ، فدعا الله أن يردَّها فأقبلت البقرة تسعى إليه ، ثم أنطقها الله ، فقالت : أيها الفتى البار اركبني إن أردت ، فقال : إن أمي لم تأمرني بذلك ، ثم أخذ بعنقها إلى أمه ، فأمرته أن يبيعها في السوق بشرط أن يخبرها بالثمن قبل أن يتصرَّف فيها ، فجاءه مشتري بثلاثة دنانير ، فقال الفتى : لا أبيع حتى أعرض الثمن على أمي ، فأغراه ، فزاده قائلاً : خذ ستة دنانير ولا تستشر ، فرفض ، فأغراه وزاده ، قائلاً : بعشرة دنانير ولا تستشر ، فرفض حتى يعود إلى أمه ، فلما عاد إلى أمه ، وقصَّ عليها ، فكأنها ألهمت أن البقرة وقفٌ لله لاتباع ، فقالت : يا بني ، هذا ملك جاء في صورة رجل يختبرك ! عد إلى السوق فإن رأيته فسأله، هل نبيع البقرة أم لا ؟ فلما عاد ، لقيه فسأله أنبيع البقرة أم لا ؟ فقال : لا تبعها ، وسيأتيك " موسى بن عمران ليأخذها منك بملء جلدها ذهباً ، وفاءً لبرك بأمك !

وجاء اليهود - ومعهم موسى - إلى بيت الأرملة فاشتروا البقرة بملء جلدها ذهبا - كما طلبت الأرملة - ثم أمرهم الله ، بقوله : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ فجاؤا بقطعة من عظام البقرة - قيل زيلها - فضربوا بها القتيل ، فقام حياً ، ودمه ينزف، فقال : قتلني ابن أخي ، قالها ثم عاد ميتًا !

وكان ينبغي أن تحسم القضية بعد أن قام الميت بنفسه فنطق بالحقيقة وبعد تلك الآية الحسية التي تقشعر منها الأبدان ! ولكن اليهود عادوا للجدال ، وقالوا : الميت كذاب ! سبحانك ربي ! إن الميت لا يكذب أبدا ! ؛ لأنه في دار الحق ، ونحن في دار الباطل . الميت لا يكذب حتى لو جاءك في المنام وأخبرك بخبر ما ، يكون صادقاً

أيضا ، فكيف وقد نطق أمامك وأنت تنظر إليه ؟ ! ليتهم راجعوا أنفسهم أو اتعظوا أو لانت قلوبهم ، ولكن ذلك لم يكن !

- ٢ -

هذه القصة القصيرة - كما يعرضها السياق القرآني - مجال للنظر في جوانب شتى .. جانب دلالتها على طبيعة بني إسرئيل وجبلتهم الموروثة ، وجانب دلالتها على قدرة الخالق وحقيقة البعث وطبيعة الموت والحياة ثم الجانب الفني في عرض القصة ..[1]

أما طبيعة بني إسرائيل غير السوية ونفسياتهم المعقدة ، فتبدوا هنا واضحة حيث غياب الثقة بالله ، وانقطاع الصلة بين قلوبهم ونبع الإيمان بالغيب ، والتلكؤ في الاستجابة لتكاليف السماء والسخرية المنبعثة عقيب أمر الله ﴿ أتتخذنا هزوا ﴾

أما الجانب الثاني ، ففي القصة درس حسي ودليل مادي على قدرة الله على البعث ، وفيه يتغير سياق القصة من الحكاية إلى الخطاب والمواجهة﴿ وإذ قتلتم نفساً فادَّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ لقد كشف الله لهم الحكمة من ذبح البقرة .. لقد كانوا قد قتلوا نفساً منهم ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه ، ولم يكن هناك شاهد ، فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه وذلك بضربه ببعضها فيعود إلى الحياة ليخبر بنفسه عن قاتله وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله ، وفي تلك الوسيلة اختبار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم !

[1] راجع في ظلال القرآن سيد قطب ج /١ ط/ دار الشروق ص/٧٧ وما بعدها .

وفـي سـورة الـبقرة خمـس قصـص أو حـوادث ماديـة فـيها أحـيا الله الموتى في الدنيا ، والآيات الخمس هي :

الأولى : حادثة البقرة ، وهي الآية التي معنـا .

الحادثة الثانية : وكانت مع اليهود أيضاً وهي قوله تعالى :﴿ وإذ قلتم يـا موسـى لـن نؤمن لـك حتـى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون، ثم بعثنا كم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ [١]

الحادثة الثالثة : قوله تعالى :﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾ [٢]

الحادثة الرابعة : قوله تعالى﴿ أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية علـى عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم ..﴾ [٣]

الحادثة الخامسة : قوله تعالى :﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيـي الموتـى قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعةً من الطير فصرهنَّ إليك ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جزءاً ثم ادعهـن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ [٤]

ونعود لقصـة البقرة وتعقيباً على المشهد الأخير من القصـة ، الذي كان من شأنه أن يستجيش في قلوب بني إسرائيل الحساسية والخشية والتقوى ، وتعقيباً كذلك على كل ما سلف من المشاهد والأحداث

---

(1) البقرة آية / ٥٥-٥٦
(2) البقرة آية / ٢٤٣
(3) البقرة آية /٢٥٩
(4) البقرة آية/ ٢٦٠

والعبر والعظات تجيء هذه الخاتمة [1]: ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوةً وإنَّ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ [2] إنها خاتمة مخالفة لكل ما كان يتوقع ويرتقب بعد تلك الأحداث الجسام ! جاءت الخاتمة لتسجل عليهم شهادة الخالق سبحانه في كتابه الخالد ، شهادةً على قسوة قلوبهم التي فاقت الحجارة ، وقد أبدع القرآن تشبيههم ، فالحجارة قد تلين فيتفجر خلالها الأنهار ، والحجارة قد تتشقق فتسمح بخروج الماء ، والحجارة قد تخشع من خشية الله أما هؤلاء فنفوسهم معقدة لا تجود ، وقلوبهم قاسية لا تلين ولا تخشع خشية من الله ؛ ولذا جاء التهديد لليهود﴿ وما الله بغافل عما تعملون﴾ ثم جاء تحذير المؤمنين منهم ﴿ أ فتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون[3]. ﴾ أرأيت كيف جاءت وصمة العار في هذا السياق القرآني القصصي ! أبعد هذا ، نطمع في سلامهم ، أو نأمن جانباً لهم ؟

العجيب المدهش أنك لتراهم صورة مكررة في كل عصر وأينما حلوا في كل زمان ، ومكان ! وهم على اختلاف منازلهم صورة مطابقة لما وصفهم به القرآن من صفات وأخلاق ، لم تزدهم الأيام إلا رسوخا ، فلو تركت الكلاب نُباحها ، والحمير نهيقها ، والثعالب مكرها ، والحيات لدغها ، ما ترك اليهود لؤمهم ! هم جبلوا على الكذب ، واستمرأوا اللفَّ والدوران !!

---

[1] في ظلال القرآن ج/١ص/ ٨٠
[2] البقرة آية / ٧٤
[3] البقرة آية / ٧٥

ولعل مما يدل على أنهم وحوش الطباع قساة القلوب ما سمعناه في أواخر القرن الماضي عن محاولات اليهود اصطياد بعض الأفراد وذبحهم واستصفاء دمائهم ، لكي يخلطوا بها فطائر عيد الفصح الذي يبدأ احتفالهم به مدة أسبوع إبتداءاً من ٤/١٤ من كل عام .. فقد اختفى قس مسيحي اسمه (الأب توما) كان يعيش في دمشق ، وبتتبع خطواته والتدقيق في البحث ظهر أنه كان في زيارة بعض أصحابه من اليهود ، وما لبثوا أن هجموا عليه وأحكموا وثاقه وذبحوه وأسالوا دمه في إناء كبير ، وعبأوا الدم في زجاجات ، ضبط واحدة منها وهي تهرب إلى القدس ، وقدم الجناة إلى المحاكمة وحكم على بعضهم بالإعدام ، ولكن وفوداً من كبار أغنياء اليهود من انجلترا وفرنسا وغيرها ، ودفعوا ثمن فرمان بالعفو عن الجناة [١] وإن الظاهرة الملازمة للنفسية اليهودية في كل أطوار التاريخ أنَّهم حيث يكونون يكون الشر والفساد والفتن والمؤامرات ، وصدق الله ﴿ ويسعون في الأرض فسادا﴾ [٢]، ولعلنا نلمس الحكمة الجليلة من تقديم اليهود على المشركين في قوله تعالى :﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ [٣] وليست فلسطين عنا ببعيد ، فاليهود منذ عام ١٩٤٨م وهم يمارسون الذبائح في شعب عزل وهم يكسبون من يومها الوقت والأرض بالمفاوضات والمؤتمرات أو قل بالمراوغات ، وكلما ضاق الخناق قالوا نريد حدوداً آمنة ! يغتصبون أراضي وبيوتاً يعملون منها حدوداً ثم يريدونها آمنة ! إن اعظم سلاح يجب أن نلوذ به هو الرجوع إلى الله فوَ الله ، " ليس لها من دون الله كاشفة "

---

(1) منبر الإسلام العدد ٧ السنة ٣٠ ص/ ١٥٦ الأستاذ محمد صبيح .
(2) المائدة آية /٦٤ .
(3) المائدة آية / ٨٢ .

أدب الاعتذار في سورة يوسف :

وفي سورة يوسف عدة مواقف تحمل أدب الاعتذار بمعناه الخُلُقي إلى جانب معناه الفني، ولعل أولها : اعتذار إخوة يوسف لأبيهم : بعدما ألقوه في غيابة الجب «وجاءوا أباهم عِشاء يبكون» (١) متأسفين معتذرين بقولهم : «إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسفَ عندَ متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين». (٢)

وحرص القرآن على ذكر الوقت الذى دبرت فيه الجريمة وهو العشاء هذا الجزء من الليل الذى تستروا بظلامه لحبك مؤامرتهم وانجاز مكيدتهم بيد أن يعقوب لم يقبل اعتذارهم وقد فطن إلى كذبهم حين رجعوا بقميصه الملطخ بالدم وهو غير ممزق فقال : متعجباً : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه ! وهو قد قال لهم ساعة ذَهَابه معهم : «وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون» (٣) فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عُذرَهم فيما فعلوه بيوسف، ولهذا اتهمهم أن يكونوا تلفقوا العذر

---

(١) ، (٢) يوسف آية ١٦ ، ١٧

(٣) يوسف آية ١٣ .

من قوله ، وكثيراً ماتلفق الأعذار الباطلة من قلق المعتذر إليه (١)

. . . .

ونقرأ ـ في السورة ـ اعتذار يوسف عن الفاحشة : حينما راودته امرأة العزيز عن نفسه فامتنع معتذراً بقوله : « معاذ الله إنَّه ربى أحسنَ مثواى » (٢) فالرب ـ أى العزيز ـ قد أوصى به خيرًا وأكرم مثواه ، ولذا هو يعتذر عن أن يقابل الحسنة بالسيئة ، ويعلل لعذره بقوله : « إنه لا يفلح الظالمون » (٣) وهم الذين يجازون الحسنة بالسيئة ، وقد يكون مراده (بالرب) لفظ الجلالة ولذا هو يعتذر عن فعل الظالمين السفهاء وقد منّ الله عليه بجعله من الأنبياء . ورغم وضوح براءته بشهادة شاهد من أهلها « بَدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » (٤)

وأراد الله به خيرا فمنّ عليه بالعلم فعُرف بتأويل الرؤى ، كما عُرف بالحكمة والتقوى ، ولهذا أمر الملك بخروجه من السجن فيعتذر يوسف عن إجابة الدعوة حتى تبرأ ساحته من التهمة التى سجن بسببها طويلاً ، ويحكى القرآن الكريم هذا الموقف : « وقال الملك ائتونى به فلما جاءَه الرسول

---

(١) كان فى قميص يوسف ثلاث آيات (أ) كان دليلا ليعقوب على كذبهم. (ب) ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . (حـ) كان دليلا على براءة يوسف حين قد من دبره فكذبت وهو من الصادقين (انظر الكشاف جـ ١ / ٦٢٣ ، وابن كثير جـ ٢ / ٤٧١) .

(٢) ، (٣) يوسف آية ٢٣ .   (٤) يوسف آية ٣٥.

قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم » (١)

ويعلق النبى (صلى الله عليه وسلم) على اعتذار يوسف عن إجابة دعوة الملك بقوله : « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول ولو كنتُ مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر »

• • •

اعتذار زليخا : أما زليخا فقد شاع أمرها بين نسوة المدينة ـ وبخاصة فى الوسط الارستقراطى ـ ويصور القرآن موقفهن منها بقوله : « وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ماهذا بشرا إن هذا إلا مَلَك كريم * قالت فذلكن الذى لُمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجنن وليكونن من الصاغرين » .

فهى تلتمس العذر من النسوة فى حبها يوسف ، وقد اعتذرت إليهن بهذه الحيلة التى صوّرها القرآن لتطلعن على جمال «يوسف» الفتان ، ولن تجد وصفاً لجماله ـ ضمنياً ـ أبلغ من هذا الوصف وقد شهدت النسوة به حين قلن « ماهذا بشرا » ، وكأنهن أعذرنها فى حبها له .

• • • •

---

(١) يوسف آية ٣٠ - ٣٢ .

وتعتذر امرأة العزيز اعتذاراً آخر بعدما تكشفت الحقيقة وعرفت براءة يوسف وتقواه ، وتضطر لأن تقول : « الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » (١) واعترافها هذا يحمل اعتذارا ضمنياً عن إساءتها ليوسف وظلمها له ، ولذلك قيل : إن قوله تعالى : « وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى » (٢) هو من كلام زليخا أى وما أبرئ نفسى من الخيانة فإنى قد خنته حين قرفته وقلت : « ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن ، وأودعته السجن تريد « الاعتذار » مما كان منها إن كل نفس لأمارة بالسوء إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف » (٣) ولعل التناهى فى حبها له حينئذ ـ وهو أمر نفسى ـ جعلها لاتبالى بظهور السر .

. . . .

بين يوسف وإخوته : وذهب إخوته إليه ـ بعد مامن الله عليه ـ فجعله على خزائن مصر ـ ليأخذوا الميرة فى سنى القحط وكان معهم بنيامين أخو يوسف وشقيقه « فعرفهم وهم له منكرون » وأراد يوسف أن يستأثر بشقيقه من بينهم فأمر بوضع صاع الملك فى رحله ثم « أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون » (٤) ، ولما تبين الصاع فى رحل بنيامين وهم قد حكموا من قبل على أنفسهم « قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين » (٥) ، لكنهم رجعوا فاعتذروا عن تسليم بنيامين وكان عذرهم هو حالة أبيهم الذى يتقطع ألماً علـى يوسف الغائب فكيف لو غاب أخوه ؟ !

(١) يوسف آية ٥١ (٢) يوسف آية ٥٢ (٣) راجع الكشاف ج ١
(٤) يوسف آية ٧٠ (٥) يوسف آية ٧٥

« قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين » . (١) فيعتذر يوسف عن أخذ أحدهم مكان السارق وعذره ألا يكون من الظالمين « قال معاذ الله أن نأخذ إلا مَن وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون » (٢) قال كبيرهم لن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى فى الرجوع إليه راضياً عنى أو يحكمنى الله من أخذ أخى ثم أمرهم بالرجوع إلى أبيهم متعذرين عن رجوع بنيامين بما حدث منه متنصلين إليه « فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ۞ واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون » (٣)

ولم يقبل يعقوب عذرهم فهو بفطنته ونبوته وفراسة إيمانه يشعر بكذبهم وتلفيقهم فكان جوابه « قال بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم » (٤)

• • • •

بين يوسف وإخوته : وذهب إخوة يوسف إليه - للمرة الثالثة - وتذكَّر يوسفُ أباه وما هو عليه من الحزن لفقد ولديه - فضلا عما بهم من جدب - فأخذته رقة وشفقة فتعرف إلى إخوته بقوله : « هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون » (٥)

فما كان منهم إلا أن اعتذروا إليه وتنصَّلوا بين يديه معترفين بخطئهم

---

(١) ، (٢) يوسف - آية ٧٨ ، ٧٩ . (٣) يوسف - آية ٨١ ، ٨٢ .

(٤) يوسف - آية ٨٣ (٥) يوسف - آية ٨٩

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) * قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهـــو أرحم الراحمين . (١) أي والله لقد فضلك الله علينا بالتقوى والصبر والعلم والحلم (وإن كنا لخاطئين) وحالنا وشأننا أننا كنا مذنبين بصنيعنا الذي صنعنا بك ولذلك أعزك الله وأذلنا وأكرمك وأهاننا (قال لا تثريب عليكم اليوم) أي لا عتب عليكم اليـــوم ولا عقوبة بل أصفح وأعفوا (٢) .

ولا غرابة في أن يقبل يوسف عذر إخوته وأن يسبل ذيل عفوه على إساءتهم بعد صبر طال على النفي والتشريد والسجن والتهديد ، فهو الصِّدِّيق النبي الصبور الحيي ، الجميل مع العفة الحليم التقي (عليه وعلى أبيه السلام)

وان امرأً دامت مواثيق عهده * على مثل هـذا إنه لـكريم

ونصل إلى اعتذار الأبناء لأبيهم عما اقترفوه من الأخطـــاء « قالوا يا أبانا استغفر لنـا ذنوبنا إنا كنا خاطئين » (٣) ويتقبل أبوهم - النبي - اعتذار بنيه عن شقوتهم أو خطئهم الذي تجاوز نفوسهم ليشمله ويشمل ابنيــــه « قال سوف استغفر لـكم ربي إنه هو الغفور الرحيم » (٤)

وهذا هو الاعتذار الوحيد الذي قبله يعقوب منهم وقد أحس فيهم الصدق والبراءة . - وبعد : فقصة يوسف مادة غزيرة ومرجع واف لـكتاب ضخم في علم النفس والأخلاق ، ولا نعدّ بذلك مبالغين أو مسرفين .

(١) يوسف آية ٩١ ، ٩٢ . (٢) صفوة التفاسير ج ٦ / ٦٥٠ .
(٣) ، (٤) يوسف آية ٩٧ ، ٩٨ .

كثير من الكتاب (١) يعدون مسرحية «أهل الكهف» للمرحوم الأستاذ الحكيم رائدة للمسرح الديني في مصر ولذا يقررون بها منحاه الديني . . . . وهذا الاعتبار أو هذا الحكم يحتاج إلى إعادة نظر . . . . وقد حاولت في هذه العجالة أن أقرر منحاه الإنساني في «أهل الكهف» لا الديني وذلك على النحو التالي :

— ١ —

لعل الأستاذ الحكيم ممن يتجرأون على النص القرآني وهو أحد أنصار الرأي الذي يطلق لنفسه عنان الخيال وهو يكتب عن القصة القرآنية ، وخلاصة هذا الرأي — في إيجاز — أن القصة القرآنية تشتمل على جنس القصة لكنها غير فنية ، فهي بعيدة عما عُرف بعد من منهج لفن القصة والمسرح ، فبناء القصة القرآنية يقوم على أسس خاصة فهي مجرد رواية ذات سرد لأحداث ساذجة . فلا يصح بحال من الأحوال أن تسلك في عداد الأعمال الفنية الأدبية ولا أن ينظر إليها على أنها قصة فنية (٢) .

ومن هذا المفهوم ينطلق الحكيم ليُعمل خياله في القصة القرآنية فيجول جولات ويزيد من بنات أفكاره زيادات يواكب بها المنهج المسرحي الإنساني الذي عرفه ووقعت عليه عيناه ! والجدير بالذكر أن أنبه لشيئين :

الأول : هو أننا إذا أردنا معايشة الحكيم وفهم ما كتبه حول القصص القرآني فلننظر إليه من زاوية أنه يكتب للفن لا للدين ، وأنه يحنى أولاً وقبل كل شيء بالإنسانية كفنان يحاكي بكتاباته كتاب أوربا وينسج على منوالهم منذ اتصل بالثقافات الأجنبية وتأثر بالجو الفرنسي فترة إقامته ، واطلع على المسرح الفلسفي ، وكان لهذا كله أثر بارز في موهبته الفنية عامة و«أهل الكهف» خاصة ، ولا أدل على ذلك مما أثاره الأديب د حبيب

(١) المسرح الإسلامي روافده ومناهجه أحمد شوقي قاسم ص ٩١ ط دار الفكر العربي .
(٢) راجع منبر الإسلام عدد ٣ سنة ١٩٧٨ م ص ٤٦ د/ إبراهيم عوضين .

الزحلاوى ، فى كتابه « شيوخ الأدب الحديث » حول اقتباس مسرحية أهل الكهف عن الرواية الإنكليزية « الالتفات إلى الوراء » وذكر الزحلاوى نقاط التشابه بين القصتين من (ص ١٦٨ - ١٧٣) ثم قال (١) :

« ما القول فى عشرة مواقف ينتزعها الأستاذ الحكيم مرتبة ترتيبًا فنيًا يقلد فيها مواقف أبطال قصة « الالتفات إلى الوراء » تقليداً تاماً فى التناسق والحوار والسياق وفى صيغ الكلام وفى التفكير الآلى وفى العودة بالذاكرة إلى ماضيهم البعيد وإلى مقارنة حاضرهم بمستقبلهم وإلى الموازنة بين ما هم عليه وما سيئولون إليه وإلى خلوصهم إلى فلسفة زمنية يقفون بها على فكرة انبعاثهم وعودتهم إلى الحياة قضاء مُبرما يعودون بعدها إلى الكهف ليدركهم الموت طبقاً لرغباتهم - فهل من المعقول أن تكون كل هذه المواقف جاءت مصادفة وعفو مشابهة الضرورة التى يمليها الموضوع ؟ !

والشىء الآخر : إذا كنا نخضع المسرح والقصة لقوالب تعورف عليها الآن فالقصة القرآنية تختلف عن هذا ولا تخضع لقالب معين . وكأن الله سبحانه يختار لكل موقف ما يناسبه من منهج قد يختلف عنه فى موقف آخر ، فهو يقوم على أبعاد ذات ظلال تعالج ما هى بصدده ثم لا تتوقف عنده ولا تفنى بَعدَه ، فتظل تُشع بأبعاد ذات شقين من الجرعات الفكرية .

الأول : تفهمه البشرية فى حينه إذ هو واقع ملموس يشير إليه القرآن « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » (الكهف ١٣) .

والآخر : تفهمه الأجيال كلما ارتقوا فكريا تعيه شُعاعاً من نور لا ينقطع مدده يقول عنه القرآن « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفذ البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » (الكهف ١٠٩) .

وهذا الشق لا يتيسر لمخلوق معارضته ، كما أن القصة القرآنية تخاطب كل

---

(١) شيوخ الأدب الحديث ص ١٧٧ - ١٧٨ والقصص الدينى د . العدوى ص ٦٧

المستويات وتعطى لكل معنى بيد أن أحدا لايستطيع أن يدعى أنه أتى على المراد ، وهـذا بخلاف القصة البشرية فهى إما أن تفهم أو لا تفهم ولا ثالث لها !

* * *

وقد أردت بما سبق أن ألتمس العذر للحكيم وأن أعايشه من هذا المنظور الإنسانى من خلال مسرحيته التى اعتبرت - كما ذكر - رائدة لمسرحنا الدينى ولكن ما يؤسفنا أن الحكيم لم يتناولها من الجانب الدينى بقدر ما استهواه الإطار وما استلهمه من جوانب إنسانية وأخرى فلسفية فنسج من الإطار نسجا إنسانيا رائدا .

- ٢ -

أهم الجوانب الإنسانية فى « أهل الكهف » :

وأرى قبـل الوقوف على تلك الجوانب الإنسانية أن نعرض - فى إيجاز للبناء الفنى والفكرى للمسرحية : فهى تقع فى فصلين ومقدمة وخاتمة، كان الكهف مكانا للمقدمة والخاتمة كما كان قصر الملك مكانا للفصلين الثانى والثالث .

أما الأشخاص: فأهل الكهف ثلاثة - وهو أحد الأعداد الواردة فى القرآن الكريم « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم » (الكهف آية ٢٢) - وهم مشلينيا ومرنوش الوزيران ويمليخا الراعى ومعهم كلبهم وهناك شخصيات أخرى من خيال الكاتب (بريسكا وأبوها الملك والفارس « الصياد » وأهل المدينة) .

وقد صور الحكيم البيئة الفاسدة التى عاشها أهـل الكهف كما صور

الاختلاف العقائدي بينهم وبين دقيانوس الملك الوثني الذي حارب معتنق المسيحية بكل قسوة .

وقام البناء الفكرى على أساس ارتباط مصير الإنسان بالزمان ارتباطاً وثيقا بالزمان فهو ليس حرّا فى التخلص من زمنه ولا يستطيع أن يعيش فى كل زمن ، والمسرحية محشودة بالأفكار الإنسانية التى تدور على لسان أشخاص هم أقرب إلى الأشباح منهم إلى البشر .

• • •

وبعد : فلعل أول لفتة إنسانية نراها فى حوار أهل الكهف ممثلةً فى (إبراز الفارق الاجتماعى) : حيث التزم الراعى - فى خطابه للوزيرين - بكلمة (مولاى) إلى أن ضاق بها ، مشلمينيا ، قائلا : إن كلمة مولاى تؤذى سمعى إنما المسيحيون إخوة ثم يسأله هل لك أهل يا يمليخا ؟ فيجيب ليس إلا قطمير ويشير إلى كلبه .

- وتنساب الأحداث مفعمةً بالإنسانية فتبرز لمحة إنسانية أخرى عقيب إيقاظ أهل الكهف ممثلةً فى : (الحاجة إلى الطعام) :

فشعورهم بالجوع يدفعهم للسعى إلى الطعام على مافيه من مخاطر وكأن الحكيم يشير إلى أن الإنسان كثيراً مايدفعه هذا السبب إلى أن يدفع حياته ثمنا ، وكم قامت صراعات وحروب بين الجماعات والقبائل والدول من أجل الطعام أو موارد الرزق[1] .

- وكانت الهيئة الإنسانية : التى أصبحوا عليها بعد الإيقاظ سبباً للتساؤل « كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم » (الكهف آية ١٩) .

فقد رأى « مرنوش » شعر رأسه يتدلى ولحيته كذلك وقد كان حليقا قبل دخول الكهف وكذلك تعجب من معه من هيئته .

(١) راجع المسرح الإسلامى روافده ومناهجه ، أحمد شوقى قاسم .

ولفتة إنسانية أخرى تصور نزوعا إنسانياً ممثلاً في : (حب المال واقتفاء آثار الكنوز) : فما أن أبرز الراعي النقود لصياد يلتمس منـــه طعاما إلا وسأله الصياد في دهشة : أمعك من هذا كثير ؟ هذا كنز فيخطف الراعي من يده النقود ويبتعد عنه ، والحكيم يجعل إقبال الناس عليهم ـ لما شاع أمرهم من أجل الكشف على الكنز ولنتأمل شيئاً مما يقولون[1] .

الناس : ياصاحب الكنز .. أبرز إلينا .. ياصاحب الكنز لا تخف .

مرنوش : أي كنز ؟ ومن هو صاحب الكنز ؟ !

يمليخا : صه .. صه ..

ويدخل الناس وفي أيديهم المشاعل يتقهقرون رعبًا وفزعاً .

الناس : أشباح .. الموتى .. الأشباح .. ! !

وحب الاستطلاع : أيضا هو نزوع إنساني فطري يتمثل في موقف الناس ـ سالف الذكر ـ حينما انكبوا على الكهف يحملون المشاعل يتقهقرون رعبا وفزعا إنهم يستطلعون ما أخبر عنه التاريخ منذ قرون .. كما يتمثل هذا النزوع الإنساني في تطلع الأميرة بريسكا وأبيها والمؤدب (غالياس) ولكل منهم هدفه الذي يتشوق لمعرفته .. فالأمـــيرة : تشغلها قصة الفتية وقصة الحب القديم وهذا النزوع يقلقها في منامها وحين تقوم ، وقامت معالم شخصيتها على النظرات المتشككة .

أما غالياس : فهو غارق في مهمته مقـــدس لتاريخ الفتية متحفظ في الحديث عنهم . وأما الملك : فهو حائر بين التقديس والفزع من تصرفات القديسيين التي تبدوا شاذة بيد أنه فرح لظهورهم في عهده .

(١) المسرحية ص ٣٤ ـ ٣٦ .

ـ ويبدو المنحى الإنساني في : (مزج العقيدة بالحب) : وذلك حين يقـــدم الحكيم مشلينيا مرتبطا بابنة الملك برباط روحي يجمع بين الحب والعقيدة والتضحية فقد تأكدت بريسكا من حب مشلينيا لها حينما رأته يعرض نفسه للخطر من أجلها ، ولذلك هي تعتنق المسيحية سرًا وتدبر له ولزميله « مرنوش » وسيلة الفرار وتنقذهما من بطش أبيها دقيانوس بعدما علم بأمر اعتناقهما المسيحية .

ـ وتبدو الحبكة الفنية حين يمتد هذا الحب إلى ثلاثة قرون ، وقد اتخذ الحكيم لذلك الوسائل حيث جعل المحبوبة تشبه جدتها في الاسم والرسم واتخاذ الصليب الذهبي الموروث عن جدتها التي ظلت عذراء طاهرة تنتظر عودة مشلينيا وظلت تردد « إني انتظر .. حتى ماتت ، وقـــد أثارت تلك الوسائل اللبس حين ظن مشلينيا بعد إيقاظه أن بريسكا الحفيدة هي بريسكا الجدة ودار بينهما حوار مسرحي مفعم بمشاعر إنسانية ملىء بالمفارقات[1].

ـ ويمهد الحكيم للقاء المحبين بحوار بين بريسكا ومؤدبها غالياس ، حين تظهر الأميرة في بهو الأعمدة بين الوصيفات وبيدها كتاب للأحلام فيقبل عليها غالياس ليخبرها أنهم اكتشفوا كنزا من عهد دقيانوس ، فتسأله : أليس هو والد الأميرة بريسكا التي سميت بأسمها ؟

غالياس : نعم وظلت تخفي دينها عن أبيها إلى أن استشهدت عذراء في سن الخمسين .

الأميرة : قلتَ لي إنهم كلما عرضوا عليها الزواج رفضت وقالت : إنها مرتبطة بعهد لن تحنث به ، فياترى مع من هذا العهد ؟

غالياس : مع الله يامولاتي . . مع من غير الله تريدين ؟

الأميرة : كنت أحسبه مع من اختاره قلبها !

(1) المسرحية ص ٣٨ وما بعدها .

غالياس : حاشا لله يامولاتي .. استغفر الله . أويختار قلبها غير الله ؟

الأميرة : وماذا يمنع ؟ إن قلب المرأة يتسع دائما لله وغير الله .. إنك لاتعرف قلب المرأة ياغالياس لأنك أحمق لم تفهم شيئا غير مايمكن أن يفهمه شيخ مثلك .. لاشك أن هذه القديسة كانت تفضل أن تكون امرأة لو أنها استطاعت .

ـ ويظل هذا الاستطراد المسرحي إلى أن تعرف الأميرة قصة الحب التي ارتبطت بالعقيدة أو قصة ذلك الرباط المقدس .

ـ وفي الليل يذهب مشلينيا ـ المحب المتيم ـ إلى بهو الأعمدة يتفقد محبوبته فيلتقي بغالياس فيسأله عنها فيخبره أنها عند الملك الذى إذا أرق طلبها لتقرأ له ـ وهنا نقف على بعض المفارقات الإنسانية البارعة[1] فحينما سمع مشلينيا أن بريسكا عند الملك أخذته الغيرة والعجب قائلا : وماتراها تصنع عنده في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ فيجيب غالياس ـ في تردد وتلعثم ـ أيها القديس.. إن .. إن ..

ـ مشلينيا : تكلم .. أهذا هو العهد المقدس ؟

غالياس : أيها القديس .. مغفرة إن الأميرة مسيحية كن تحمل اسمها وحافظة للعهد المقدس !

ـ وتظهر بريسكا فجأة فيقبل عليها مشلينيا في لهفـــة وشوق يكلمها[2] ولكنها لا تجيبه فيتوسل إليها قائلا .

تكلمي .. انطقي .. إني لست قادراً بعد على احتمال مايحيط بك من صمت وغموض ، تكلمي بشيء فتخاطبه بأيها القديس ، فيجيب : أتتهكمين ؟

---

(١) المسرحية ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) المسرحية ص ١٠٠ وما بعدها .

إنى لست قديسا أيتها العزيزة بريسكا وأنت تعرفين ذلك فتتعجب : ألست القديس الذى رأيته أمس ؟ لقد صرت شخصاً آخر إذ كنت أمس شيخا أما الآن فأنت فتى !

ـ مشلينيا ـ فى تهكم ـ شيء جميل ما أبرعك لقـــد عرفت أنى فتى وأنى إنسان مرحى .. مرحى .. إنى أعرف بريسكا بسيطة وديعة صافية النفس مؤمنة القلب وما عرفتها قديرة على التصنع والختل .

ـ بريسكا : إنك تخاطبنى كأنك تعرفنى من قبل !

مشلينيا : وأنت تخاطبينى كأنك امرأة ثانية تتجاهل الماضى وتنقض العهد المقدس !

ثم يتقـــدم نحوها طالبا الصفح فتمنعه قائلة لا تلمسنى فيجثوا أمامها متوسلا : بريسكا إنى أتعذب ، ويرى الصليب لجأة فى عنقها فيصيح وافرحتاه هذا صليبى هذا الدليل على حفظك عهدى ما أسعدنى الآن يا خطيبتى ثم يتناول يدها ليقبلها فتنتزعها قائلة : مجنون فتتحرك الغيرة فى نفسه فيسألها :

ـ من الذى كنت تقرأين له الآن فتجيبه هو أبى وليس بدقيانوس فيرتاب مشلينيا ، فتفطن هى إلى أنه يقصـــد جدتها فتقول له : إن بريسكا ابنة دقيانوس التى تهواها ماتت منذ ثلثمائة عام عذراء طاهرة كما تركتها وقد حافظت على عهدك .. ثم تودعه وتنصرف .

° ° °

والإنسان إنما ينشد فى الحياة الأمل فإن يئس من تحقيقه تمنى أن يفارق الحياة على عجل ، وهذا المفهوم الإنسانى (لاحياة بغـــير أمل) : يبدو حين أعاد الحكيم أهل الكهف ثانية إلى الحياة وراء أمل فلما يئسوا من

أملهم فى الحياة الجديدة أعادهم إلى الكهف ثانية واحدا تلو الآخر وفقا لانقطاع أمله فى حياة انعدمت صلته بها شعورا وإحساسا . «ولا تكفى عودة الروح إلى الجسد لاستمرار الحياة لأن ثمة عامل الزمان ولا بد من حساب هذا العامل حتى تستطيع الروح أن تعيش فى جسم الإنسان بين الناس وبغير ذلك لا جدوى من بعث الروح»[1] ..

— وكان أسرع الثلاثة للعودة «الراعى» الذى صوره الحكيم منقطع الأهل وكان رد فعل الحياة عنده هو الشك فى كل شىء حتى فيما آمن به قبل الكهف من المسيحية ولهذا كان أسرعهم للهروب من تلك الحياة الغريبة عنه وأسرعهم إلى الموت متشككا . !

— ثم عاد «مرنوش» حزينا يائسا بعد ما يئس من وجود زوجته وولده وأكدت له الوقائع أن ولده توفى شهيدا فى سن الستين وذلك منذ أكثر من مائتى عام ، ولهذا ينتهى به الأمر إلى إنكار البعث والعالم الآخر ، ثم المسيحية برمتها ، فالصدمة الأليمة والحياة الجديدة قد زعزعت إيمانه القائم على المنفعة ، ولهذا نراه يموت ملحدا وثنيا «مجردا من كل شىء .. عاريا كما ظهرت .. لا أفكار ولا عواطف ولا عقائد»[2] !

— ثم يعود «مشلينيا» وقد يأس من حبه الذى مات منذ قرون ثلاثة وكان أطولهم بقاء فى تلك الحياة الغريبة لأنه عاش على الحب .

— وقد جسد الحكيم معنى الحب بجعله يقف فى وجه كل شىء ويعود على كل شىء فقد اعتنق «مرنوش» المسيحية لا لإيمان واعتقاد فيها بل حباً لزوجته المسيحية ، واعتنقت بريسكا الأولى المسيحية مع أن أباها «دقيانوس»

---

(١) قضايا الإنسان فى الأدب المسرحى المعاصر د. عز الدين اسماعيل ص ٢٣٥ .

(٢) المسرحية ص ١٥٢ .

كان عدوا للمسيحية وما ذاك إلا لحب ربط بينها وبين مشلينيا الذى اعتنق المسيحية ولم يبال مشلينيا بالفارق الزمنى بينه وبين بريسكا الثانية مادام قلبه تفتح للحب .

— وهذه لفتة إنسانية بارعة .. فالحياة الحقيقية هى التى تخضع لزمن وتقوم على حب وأمل وتتسم بحركة وتجاوب بين الأحياء .

— ٣ —

ولرى فى المسرحية خروجاً عن الهـــدف القرآنى وتعارضاً معه فى أمر البعث !

فالهدف الذى جاءت به القصة القرآنية هو الدعوة إلى التوحيد « وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا » (الكهف الآية ١٦) .

فكان على الأستاذ الحكيم إذا أراد أن تكون قصته إسلامية أن يجسد معنى التوحيد وسائر المعانى الدينية التى جاءت بها القصة لاسيما وهى صريحة فى محاربة الوثنية وما جاء من اضطهاد أهل الكهف لا لشىء إلا أنهم قالوا ربنا الله ! .. والسورة نفسها بدأت بالتوحيد « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا » (الكهف الآية ٤) فلو كان منحى الحكيم دينياً إسلاميا لجسَّد معنى التوحيد وغيره من المعانى الدينية .

— أما التعارض فى أمر البعث : فالقرآن الكريم أخبر عن إيمان الفتية بالبعث وعمل على غرس هذا المعنى بينما انتهى الحكيم إلى كفر الفتية بالبعث وإعلان ما أسماه « إفـــلاس البعث » نرى ذلك على لسان « مرنوش » وهو يحتضر .

مرنوش : أو لم نر بأعيننا إفلاس البعث ؟

مشلينيا : استغفر الله أنت الذي عاش مسيحيا .. تموت الآن كوثنى ؟

مرنوش : نعم أموت الآن .. مجردا من كل شىء عاريا كما ظهرت .. لا أفكار ولا عواطف ولا عقائد[1] !

— ولا أرى ما الحكمة التى أرادها الحكيم من تجريد مرنوش من الإيمان وهو أحد الفتية الذين آمنوا وزادهم الله هدى ؟ « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هـــدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططا » (الكهف الآية ١٣ ، ١٤) .

أرأيت بعد هذا تأكيدا لإيمانهم واقتناعاً منهم بالبعث ؟

— إن فى أهل الكهف دليلا حسيا ملموسا مرئيا على قدرة الله على البعث فى أى وقت وعلى أية هيئة يريدها الحق سبحانه « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها » (الكهف آية ٢١) .

— واختيار المكان كما أخبر عنه القرآن يستدعى تأملاً . فلقد لما أراد لهم الهدى هداهم إلى اختيار مكان توسموا فيه الرحمة والأمان وكان لهم ما أرادوا حيث نشر الله عليهم رحمته من خارج الكهف وفى داخله !

أما خارجه : فحين « ترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله » (الكهف آية ١٧) .

وأما فى داخله : فقد أراحهم الله من نورتهم العارمة فى وجه الملك الجبار الذى بدل دين المسيح وأشرك بالله وعبد الأصنام ... أراحهم الله فأنامهم

---

(١) المسرحية ١٥٢ - ١٥٣ .

نوما عميقاً تهدأ فيه النفس ، يقلبهم الله ذات اليمين وذات الشمال مبالغة في راحتهم وحتى لا تأكل الأرض أجسامهم تحسبهم حين تنظر إليهم أيقاظاً لأنهم على هيئة المستيقظ .

– ٤ –

دوافع وأسباب : ونعود لنتساءل عن الدوافع والأسباب التي دفعت الحكيم إلى تأليف مسرحيته « أهل الكهف » وأرى الإجابة تكاد تنحصر في أسباب اجتماعية أو سياسية فالحكيم أحد الكتاب الذين استقرت مصر في ضمائرهم ، ولذا هو يرمز دائماً إلى إحيائها ومواكبتها للنهضة المعاصرة ومن أجل هذا هو يستلهم من القرآن مادة يناقش من خلالها قضايا الإنسان وكان مسرحه بمثابة إعادة النظر في الحياة الفكرية والحضارة الإنسانية التي نجمت عنها أزمات وكوارث عالمية حينئذ . . . ولذلك يرى بعض النقاد أن « أهل الكهف » لها غاية اجتماعية وهي : القضاء على الوهم الذي طالما داعب الشرق والشرقيين وزين لهم أن يحيوا حياة كأنها الأساطير السرمدية ، حياة خارج حدود الزمن(١) . ويرى د. لويس عوض أنها مسرحية سياسية رمزية معاصرة يقول : « ربما اتخذت من أشخاص دقيانوس ومشلينيا ويمليخا ومرنوش وبريسكا أقنعة تحكي قصتنا نحن المصريين ، ونومتنا في كهف العصور الوسطى أربعة قرون تحت الأتراك العثمانيين . . . والحكيم حين تصدى للمشاركة في قيادة الفكر السياسي المصري علم المثقفين أن يرفضوا بالعقل أيضاً ما كانوا يرفضونه بالقلوب كما بين للناس ماذا يرفضون لكنه لم يبين لهم بماذا يؤمنون »(٢) .

---

(١) قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر ص ٢٤٨ .
(٢) القصص الديني ص ٦٥ والأهرام، عدد ٦/١١/١٩٧٠ م.

- وربما تغيّا الحكيم من وراء مسرحيته غاية فكرية إنسانية وهي : « الرد على السلفيين الذين يريدون سيطرة الماضي على الحاضر ولذلك فهم يناهضون حركات التجديد في الفكر والفن تحت شعار قداسة الماضي والحفاظ على التقاليد وقد وضح ذلك حين أعاد الحكيم « أهل الكهف » إلى قومهم وكأنه أراد أن يقول لهم : عودوا بقداستكم إلى الماضي ولنجعل عليكم هيكلاً أو بناء نزوره من آن لآخر بغية الذكرى والعبرة لا أكثر ولا أقل ، أما أن نتركم بيننا تعيشون وتؤثرون في روابطنا وتقاليدنا فهو تعطيل لنا في حاضرنا ومستقبلنا »(١) .

والحكيم نفسه يؤكد ما سبق ذكره حين يقول مشيراً إلى الأحداث العالمية حينئذ « إن الحرب ما يكاد يختفي شبحها ويسكن ثائرها وتنقشع غيومها حتى يطيب أحيانا - للفن أن ينطلق من جو المسائل القومية إلى جو المسائل الإنسانية ، لهذا ما كادت الحرب العالمية الأولى تبعد شقتها . . . حتى اتجهت إلى مصدر آخر هو الإنسان في أفكاره الثابتة في كل زمان كان ذلك منذ عام ١٩٢٨ م حيث أخذت في كتابة تمثيليات « أهل الكهف » « وشهرزاد » « والخروج من الجنة »(٢) .

- ٥ -

والحكيم لما له من باع طويل في مسرحه الذهني يجعل من الكهف دلالة على العقل الباطن للإنسان بكل صدقه ومتناقضاته ، ويعني بخروج أشخاصه من الكهف اشتجار عقلهم الظاهر بالباطن (الوعي باللاوعي) ، وكان هذا الصراع هو العامل الأساسي للاضطراب الشديد في عقول الفتية عندما عادوا إلى الكهف في نهاية المسرحية ، وهو يجعل من بيت مرنوش سوقاً للسلاح ولعله رمز بذلك إلى أسلحة الحاضر التي تواجه الماضي دائماً . . وهو يرمز

(١) القصص الديني ص ٢٦ .
(٢) مقدمة مسرح المجتمع للحكيم ط . الآداب بدون تاريخ .

إلى حاضر مهيز بالشباب المحب "مثيلينيا" الذى يرى أن الحاضر ثمرة الماضي وامتداد له وينبغى أن يصاغ المستقبل على هـذا الأساس لأن الأجيال متواصلة يرتبط قديمها بحديثها . كما يرمز إلى أهمية الماضي بالفتاة بريسكا التي ضاقت بحاضرهم رغم ماهي فيه من حياة النعيم والبذخ وهـذا آثرت أن تدفن نفسها مع الماضي من أجل هذا المستقبل . . . وكل هذا الخيال عمل مادي إنساني دون شك . وكل هذا وذاك يؤيد مادعوت إليه من إعادة النظر في مسرح الحكيم الديني وما أطلق من ريادته للمسرح الديني وماقلته عن أهل الكهف يمكن أن يقال على غراره فى معظم مسرحياته التى استلهم إطارها من القرآن الكريم إلا قصته « محمد » فإنه التزم فيها بالنص التاريخى كما جاء فى سيرة ابن هشام وكأنه أراد أن يظهر محمداً على حقيقته .

ـ والله أسأل أن يمدنا بعونه ويلحظنا فى كونه ويكلأنا برعايته حتى نحقق الرسالة التى نيطت بنا فى دقة الدرس وجدة البحث .

« وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

دكتور / محمد حامد شريف

دليل الكتاب